يسلم الوطن

عزيز نيسين

نقلها عن التركية

جمال دورمش

عزيز نسين

يسلم الوطن

مجموعة قصص

نقلها عن التركية: جمال دورمش

١٠٠٠ نسخة

١١ | ١٩٩٦

التنضيد والإخراج : النوّار للطباعة

لوحة الغلاف : للفنان موفق قات

اللوحات الداخلية : للفنان سامي بوكوي

الإهــــداء

كــم رياحــه عاصفـة

ورمــاده يذري الأمل

كم هو هذا الحزن جمـيل

لإننا نفاجئه بمرارة وعذوبة سخريتنا



يسلم الوطن

وأخيراً، حصل ما كان سيحصل، لكن هل وصلت الأمور إلى مرحلة لا يمكن السكوت عنها؟ أم أن صبرهم قد نفد، أم أن الملفات لم تعد تتسع لهذا الكم الهائل من الشكاوى والوشايات، أم؟!.. على كل حال، ومهما كان السبب، فقد كُلفنا بمهمة مراقبة وتفتيش مصنع كشير بك للإنشاءات المعدنية.

ونظراً لكثرة الشكاوى والإدعاءات بالاختلاس، ومدى أهميتها، فقد كلفنا نحن المفتشين الخمسة بلجنة الرقابة والتفتيش، إذ كان أحد أعضاء اللجنة خبيراً للحسابات، واثنان مفتشين ماليين، وأنا مفتش عمل.

وقد كان لا بد من التحقق من هذه الشكاوى والادعاءات، ومن ثم دراستها بنداً بنداً . كل هذا استغرق فترة أسبوع.

قد يكون هناك بعض التجاوزات، لكن أن يبلغ هضم الحقوق هذا المبلغ، وأن تصل الاختلاسات إلى هذه الدرجة فهذا يؤدي إلى التوتر العصبي ورفع ضغط الدم في أعلى اليافوخ.

أما التهرب الضريبي.. حسناً لنقل أنها ليست مسألة هامة إلى هذه الدرجة إذ أنه ليس الوحيد ممن يتهربون من تسديد الضرائب.

لكن ماذا عن تشغيل الأحداث بأجور متدنيةٍ جداً ..؟ أم تشغيل العمال لمدة عشر ساعات عوضاً عن الثمان، بينما تقدم جداول الرواتب على أساس ثماني ساعات عمل؟ وعدم تسديد أجور ساعات العمل الإضافية المسائية ؟ أم عدم صرف تعويضات إصابات العمل للعمال المصابين أثناء العمل؟!!.. أم انتهاك أعراض بعض العاملات الجميلات؟!! حسناً.. لنقل إن هذه الأمور لا تخصنا، فهي مهمة رجال الشرطة والقضاء، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية. فهو رب عمل ومَن مِن هؤلاء لا يقوم بذلك؟.. لكن أن لا يصرف تعويض الوفاة لزوجة عامل بوتقة صهر المعادن بحجة أنه قام بعمل إنساني بتشغيلها وتشغيل ابنها في المصنع، وهما بسبب خوفهما من التسريح أذعنا لعدم المطالبة بحقوقهما من تعويض الوفاة بإصابة العمل؟!. أم ذانك العاملان اللذان أصيبا

بعينيهما أثناء العمل على آلة الخراطة وما زالا مستمرين بالعمل دون المطالبة بحقوقهما من تعويض إصابة العمل على الرغم من الخطر الذي يتهدد العين السليمة أيضاً؟

كنا جميعاً مفتشين شباباً متحمسين ومشبعين بروح الوطنية. كنت أقدمهم في الوظيفة حيث تعينت منذ سنة ونصف.

وذات صباح، اتجهنا إلى المصنع الموجود في الخليج باكراً بزيارة تفتيشية مباغتة، بوجوه متجهمة مقررين القيام بمهمتنا دون أدنى تساهل مع أحد، هذا يعني أننا سنلعن روح كشير بك، كنا مخولين بذلك ونحن أصحاب قرار.

وعند الباب الخلفي كان بانتظارنا خمسة أو ستة أشخاص عرّفونا على أنفسهم، في المقدمة مدير الشؤون الإدارية، أما الباقون فكانوا محاسبين وموظفين الخ.. استُقبلنا بحفاوة.. كثيراً ما كانوا يتحدثون ويشرحون ويضحكون، أما نحن فلسنا من أولئك الذين يلينون بسهولة. عبرنا حديقة كبيرة واضح أنه معتنى بها بشكل جيد. في المقدمة وعلى ما يبدو يقع بناء الإدارة. وفي الخلف صالات الإنتاج. وعند عبورنا مدخل مبنى الإدارة قلت لهم بجلافة مفتش حقيقي:

ـ سنلتقي بكشير بــك.. أجـابني المديـر الإداري بنعومـة وهـو يفرك كلتا يديه:

ـ هيه هيه يا سيدي!!!.. أساساً كشير بك بانتظاركم..

ـ أيعلم بقدومنا؟

ـ آه ه ه.. طبعاً يا سيدي.. أيعقـل أنـه لا يعلـم.. مؤكـد أنـه يعرف موعد تشريفكم..

دخلنا إلى صالة كبيرة، هـذه الصالـة كـانت أقـرب إلى صالـة متحف، من أن تكون صالة مصنع. على جدرانهـا توزعـت صـور فوتوغرافية مؤطرة مقززة لدرجة أنه لا يوجد موضـع شـبر واحـد فارغ، بعض هذه الأطر تحتوي على رسائل باللغة التركية القديمة.

كذلك توزعت الخزن والفترينات هنا وهناك.

عند دخولي، استرقت النظـر لمعرفـة محتويـات تلـك الخـزن ــ أقلام، ميداليات ساعات وبعض التحف والهدايا الأخرى.

اندهشت كثيراً عندما دخلنـا هـذه الصالـة الشـبيهة بـالمتحف وأيدينا مثقلة بالملفات والحقائب.

تفضلوا واستريحوا قليلاً يا سيدي.. تفضلوا أرجوكم..

كان المدير الإداري رجلاً وسيماً ورقيقاً للغاية «أي نازيك» وعندما جلسنا على الأرائك تذكرنا أن نشرح له سبب قدومنا.. وبدوره أجابنا:

نعرف يا سيدي... كل ما تطلبونه سيكون في خدمتكم وتحت تصرفكم.. لكن لا بد من تناول القهوة الآن حتى تستريحوا قليلاً. كانت إجابتنا كلها متقاربة.. لا داعي، نشكركم، لا أشرب.. Mersi

ـ حسناً إذن، نحتسي كوباً من الشاي؟

ـ لا .. شكراً، Mersi، من الأفضل أن نلتفت إلى أعمالنا.. لنلتقِ بكشير بك

ـ حسناً يا سيدي.. سيأتي الآن، ألا نتناول شيئاً بارداً، كازوز، عصير الليمون، عصير فواكه، وما شابه ذلك؟

لا، حتى الماء لن نشربه في مصنع رجل منحط مثل هذا..

من المفترض أن تكون زيارتنا هذه سرية ومباغتة، لكن خروجهم واستقبالهم لنا عند الباب الخلفي بدد ذلك.

فُتِحَ الباب، ودخل رجل أنيق المظهر يرتدي بذة رمادية، كرشه مندلق أمامه ومع دخوله تقافز الموظفون كنابض خرج من

مكانه وهرعوا صوبه، وساروا خلفه بإجلال واحـترام لذلـك أيقنـا أن الداخل هو كشير بك.

ومع تقافز الموظفين، وجدنـا أنفسـنا مضطريـن لتغيـير طبيعـة جلسـتنا، صديقنـا خبـير الحسـابات، انتصـب واقفـاً فجـأةً، نظـراً لاعتياده التعامل مع ذوي المناصب العالية، لكنـه قـد يكـون تذكـر سبب مجيئنا في اللحظة الأخيرة، لذلك جلس ثانية أما المفتش المالي، فقد وقف وخطا صوبه خطوتين، صديـق آخـر عـدّل مـن جلسـتِه وأنزل رجله التي كانت موضوعة فوق الأخرى.

أما أنا فقد اكتفيت برفع كلتا قدمي عن الأرض مسـافة شـبر واحد.

وفور دخوله اتجه كشير بك نحونا ماداً يده إلى الأمـام وكأننـا استقبلناه بالطريقة التي اعتاد عليها قائلاً:

ـ أرجوكم، استريحوا يا أولاد، اجلسوا أرجوكم.

أزعجتني كثيراً لطافته الزائدة عندما نعتنـا بـالأولاد. مـا هـذه الوقاحة وقلة الاحترام؟ حتى ذاك المفتـش المـالي الـذي سـار خلفـه خطوتين أبدى استياءه إذ أدار له ظهره مشـعلاً سيجارته، أمـا أنـا

فقد وضعت رجلاً فوق أخرى ورحت أنفث دخان السيجارة نحوه.

اقترب كشير بك منا أكثر وقال:

ـ أهلاً وسهلاً بكم يا أولاد، هيا قولوا كيف أحوالكم ـ شو في ما في ـ ؟

تصوروا أنه يسأل عن أحوالنا وكأنه صديق آبائنا منذ سنوات طويلة، ولكني سألقنه درساً لن ينساه طوال حياته، ولكي أعلّمه كيف يحسن معاملتنا، وقفت متظاهراً بالجدية والحزم وقلت له:

ـ نحن هنا في مهمة تفتيشية، بين أيدينا شكاوى تتهمك بالاختلاسات، وقد أتينا كي نتأكد منها.

أطلق ضحكة مجلجلة، وبشكل استعراضي، حتى بدت أقرب ما يكون إلى الاستهزاء قال:

ـ لا عليك، بسيطة، بسيطة.. لاه!! هكذا إذن! ومن ثم التفت إلى المدير الإداري ليقول له:

ـ وهل أكرمتم السادة؟ أجابه المدير الإداري مطأطئاً رأسه وكأنه آثم:

ـ عرضنا عليهم يا سيدي.. لكنهم رفضوا..

ـ يا هوه .. طبعاً سيرفضون.. اللــه اللــه هــم ضيـوف، هيـا اجلبوا ما لديكم..

تراكض شخص، اثنــان.. بينمـا كـان صديقنـا المفتـش المـالي يقول:

ـ لا، لا داعي لن نشرب..

أما أنا فتمتمت قائلاً:

ـ أتينا هنا للتفتيش، نحن مفتشون. اقترب منا ضاحكاً وقال:

– طبعاً يا روحي، طبعاً.

ومن ثم انحشر بيننا ضاغطاً بكلتا يديه يد أحدٍ منـا، ومـن ثـم وضعها على كتف آخر، وعندمـا دنـا مـني أمسـك بذقـني وكأنـه يداعب طفلاً يوم العيــد، بعـد ذلـك توجـه صـوب صديقنـا خبـير الحسابات ليداعب وجنتيه.

كان يقوم بهذه الحركات مظهراً سلوكه الأبوي لدرجة أنـني تمنيت أن أدفع يده عندما أمسك ذقني، لكن، لم أستطع.

دخل ثلاثة أشخاص وهم يحملون «صينية» عليها شتى أنواع المشروبات.

قلت له:

ـ آن الأوان للالتفات إلى مشاغلنا. أجابني كشير بك بهدوء:

ـ حسناً.. لكن لا بد أن نشرب شيئاً ما.

داروا علينا «بالصينية».. وبما أنها أصبحت أمامنا، فلم نتمكن من رفضها.. لأن في ذلك وقاحة وفظاظة. ومع ذلك قلت لهم بشيء من الجدية:

– لن أشرب..

– تفضلوا.. لدينا عصير البندورة.. رجاء تفضلوا.

أخذت عصير البندورة وشربته، بينما سألنا قائلاً:

– هل شاهدتم الصور المعلقة، انظروا.. انظروا.. ذكريات غنية جداً..

وعندما لاحظ، أننا لم نعره اهتمامنا، نادانا مشيراً بيده:

ـ تعالوا وانظروا.. هذه الصورة أُخذِتْ في أحلك أيام حرب التحرير.. آه يا لها من أيام، هكذا حررنا وطننا يا أولاد.. نعم بدون أسلحة أو ذخائر. لكننا كنا أقوياء بعزيمتنا وإيماننا.

التصقنا بتلك الصورة التي أشار إليها، بينما دخل هو بيننا جاعلاً من كلتا يديه جناحين وألقى بهما فوق أكتافنا.

ـ يا أولاد!!.. وهذه الصورة أُخِـذت يـوم سـحقتُ العصيـان الواسع.. تعرفون أليس كذلك؟ ذاك العصيان الدامي الـذي جـرى ضد حكومة المجلس الوطني يا، نعـ ـ ـ م. هكذا أنقذنا الوطن.

بعد ذلك أشار إلى صورة أخرى معلقة بجانبها ..

– هذه صورة أحـد المسـؤولين الكبـار في عصرنـا الراهـن.. وعليها بعـض العبـارات باللغـة التركيـة القديمـة * ، هـل تستطيعون قراءتها؟.. لا ؟!! حسناً لأقرأها لكـم «إلى الأخ العزيـز كشـير» . إيه كنت قريباً جداً منه.. يا لها من أيام..

بعد ذلك سحبنا نحن الخمسة دفعة واحدة بجناحيه الموضوعين على أكتافنا مثل كتاكيت طائر البط إلى الجدار المقابل، وعلى هـذا الجدار تربعت خارطة تركيا. أخذ عصاه التي كانت مستندة جانباً، وراح يشير بها إلى المناطق التي تقع على تلك الخارطة.

– هذه Geyve تحيطها الجبال من كلا الجـانبين.ـ.. ويتوسـطها واد... ومن كلا الجانبين كان يتقدم العدو.. تمركـزتُ ومجموعـتي

---

* اللغة التركية القديمة هي اللغة العثمانية، أبجديتها كانت تعتمد على العربية. المترجم .

في هذا المكان. ضرب من الخيال، العتاد قليل، بعض البنادق «البواريد» وثلاث قطع من الرشاش الأوتوماتيكي فقط..

كان يشرح لنا ذكرياته عن حرب التحرير، لكن بحماس وهيجان منقطع النظير لدرجة أني شعرت أن شعر جسمي انتصب من تأثير ما سمعت.

– دعوني ـ تابع حديثه قائلاً ــ إلى مركز البريد والبرق... ذهبت... وفي الطرف المقابل كان مصطفى،

– ومن مصطفى؟ ـ سأله المفتش المالي ــ فنظر إليه بازدراء وقال:

ـ وكم مصطفى لدينا؟

ثانية قام بجرنا نحن الخمسة بكلتا يديه لنتوقف أمام إطار آخر معلق على الجدار، حيث رسالة مخطوطة باللغة التركية القديمة.

– هذه الرسالة موجهة لي.. اسمعوا سأقرأها لكم.. أخي وروحي كشير، لا شك أن الانتصار الذي أحرزته كان كبيراً.. فهذه الأمة لن تنسى ما فعلته من أجل الوطن.. أقبلك من عينيك.

وهذا المسدس الذي أمامكم، هو مسدس جنرال من جيش العدو، غنمته عندما قمت، وبرفقتي أربعة رجال، بهجوم مباغت

على العدو. وهناك صور أشخاص مهمين ساهموا بشكل كبير في بناء تاريخنا الحديث.

وهكذا راح يقف أمام كل واحدة ليشرح لنا محتواها. أما أنا فكنت لا أتأثر وأنشحن وحسب بل كنت أتحمس أيضاً لما كان يقوله كشير بك.. نظرت إلى خبير الحسابات فوجدت عينيه مغرورقتين بالدموع، وعلى وشك الانفجار.

ـ وهكذا يا أولاد... ناضلنا كي نترك لكم وطناً حراً مستقلاً..

وفجأةً صمت للحظات، ومن ثم تابع قائلاً:

ـ أخشى أن أكون قد أثقلت عليكم يا أولاد...

– أستغفر الله، أمان يا سيدي ـ قالها المفتش المالي مزرراً عروة سترته ـ أننا نستفيد مما قلت.

– وهكذا نعيش ذكرياتنا الجميلة... ماذا عسانا أن نفعل.. ما حدثتكم عنه هو أمثلة تحتذون بها.. هيا لنترك هذا الموضوع ولنعد إلى عملنا.

إلا أن خبير الحسابات أردف قائلاً:

أرجوكم يا سيدي تابعوا ما بدأتم به.. «شو بيصير»

قام بالحديث عن موجـودات الخـزن والفترينـات كـل واحـد على حدة، كذلك الصور.

ـ هيا لنجلس قليلاً إذن في غرفتي فالشرح لن ينتهي..

انتقلنا إلى غرفة كشير بك.. وكانت هذه الغرفة متحفاً بكـل معنى الكلمة، فهي أغنى من تلك الصالة والأرائـك مريحـة أكـثر.. جلسنا.. وتابع حديثه عن ذكرياته بنفس الحماس...

ـ كنا مجموعة تتألف من أربعمائة جندي من المشـاة وخمسـين من الخيالة، وبين أيدينـا عـدد قليـل مـن الأسـلحة الرشاشـة.. أمـا العدو... فمتفوق عنا بكثير من حيث العدد والعدة، فرقة عسكرية كاملة بعتادها وكوادرهـا، ولكـن عندمـا صـرخ سـباعنا الذيـن لا يهابون الموت بأعلى أصواتهم، وبملء حناجرهم مطلقين نداء اللــه أكبر! وانقضضنا عليهم بالسلاح الأبيـض. كنـت في مقدمتهـم هـاه!... يومها قال لي فوزي. سألته:

ـ ومن هو فوزي يا سيدي؟

أجابني ممسكاً بأسفل ذقني:

ـ كم عمرك؟

ـ ثمانية وعشرون عاماً يا سيدي.

ـ يحق لك أن لا تعرفه، لأنك يومها لم تكن في رحم أمك حتى...

بعد ذلك حدثنا عن جسارة وإقدام أحد أصدقائه أثناء المعركة بطريقة حماسية لدرجة أنني ظننت أن قلبي صعد إلى فمي. ومن ثم راح يحدثنا عن استشهاده لكن بطريقة وكأنه يعيش أحداث استشهاده من جديد. أما أنا ولكي لا أبكي، رحت أقضم شفتي بأسناني، نظرت إلى خبير الحسابات فوجدته يبكي، أما المفتشان الماليان فكانا يمسحان دموعهما بالمنديل ويشهقان بأنفيهما..

ـ أستميحكم عذراً.. لقد اضطربت قليلاً كان عليّ أن لا أحدثكم أحاديث كهذه.

- نرجوكم... تابعوا حديثكم ياسيدي...

مسح عينيه الهرمتين بكف يده ناظراً إلى ساعته:

ـ آووه ه.. تأخرنا يا أولاد شارفنا موعد الظهيرة وقد أخرّتكم عن أعمالكم، انتصب واقفاً على قدميه، فاتحاً كلتا يديه وبوقوفه اضطررنا للوقوف أيضاً وسرنا خلفه.

ركبنا سيارته الخاصة، كانت كبيرة!..

ـ أين سنتناول طعام الغداء يا أولاد؟

- ساعدونا، إذا تفضلتم، فنحن غير... قطع ما بدأت به قائلاً:

ـ ما هذا الحديث.. يا هوه.. كل أربعين عام مرة... أيجوز ذلك؟.. أنا بمكانة آبائكم.

طلب من سائقه التوجه إلى المطعم الذي.. سنتناول طعام الغداء فيه.

وفي جو من المرح استمر تناول طعام الغداء مدة ساعتين أثناء ذلك راح يحدثنا عن مغامراته المرحة والأحداث التاريخية التي عاشها.

التفت خبير الحسابات إليّ ليهمس في أذني:

يا هوه.. ما هذه النذالة ـ هناك أيضاً من يتعرض لمثل هذا الرجل؟..!!

أجابه المفتش المالي قائلاً:

ـ نعم نحن هكذا.

أما أنا فلم أستطع إلا أن أقول: «ناكروا الجميل».

عدنا إلى المصنع وهناك قال لنا كشير بك: لنحتسِ القهوة أولاً ومن ثم نبدأ عملنا...

لكن في هذه المرة أخذنا إلى غرفة أخرى، وهي أيضاً كانت، أشبه بمتحف تاريخي، صور تاريخية... رسائل... وثائق.. وهناك راح يشرح لنا عن تلك الصور..

ـ نعم يا أولاد.. هكذا بنينا الوطن وكل ما فعلناه كان من أجلكم.. من أجل الشباب..

وبعد الحرب لا بد من إيقاف الوطن على قدميه ولكن كيف تم ذلك؟.. بالصناعة طبعاً، طلبني مصطفى ذات مرة.. رحت إليه.. وهناك وعلى طاولة مشروب المساء عانقني وقبّلني من جبيني وقال لي: «أخي وروحي كثير... سنبني المعامل، وهذا دورك ودور أمثالك.

قلت له:

ـ أمان يا ربي، وكيف ذلك؟ لدينا دم نفتدي وطننا به ونعمده، ولكن من أين لنا الأموال لإقامة المعامل؟! وهكذا راح يحدثنا عن الصعوبات التي واجهته لبناء هذا المصنع وكأنه واجب وطني:

ـ ثقوا يا أولاد، محاربة العدو أسهل بكثير... سنوات طويلة ونحن في الجبال نقدح الزناد في وجه العدو... ماذا نعرف عن

الصناعة وماذا نعرف عن التجارة... لكن، قلنا يومها إنها مهمة وطنية... وهكذا وجد في هذا المصنع حوالي ألف معدم فرصتهم في العمل... يعني وجدوا في هذا المصنع قوت عيشهم...

أدخلونا في مكان يشبه بالعنبر في الطابق السفلي، وهناك على الجدار علقت صور مزينة بشرائط سوداء.

ـ هؤلاء شهداء ـ قال لنا ـ شهداؤنا في معركة التصنيع الوطني...

تابع حديثه وعيناه مغرورقتان بالدموع «عمالي الذين ماتوا بسبب إصابات العمل... لذلك شيعتهم بمراسم جنائزية عظيمة وأقمت على أرواحهم مجالس قراءة المولد النبوي الشريف وبنيت لهم القبور اللائقة بهم ولكي لا يطال أطفالهم العوز والحرمان والجوع وضعتهم تحت حمايتي ورعايتي ومنحتهم فرصة العمل في مصنعي...».

ـ وهؤلاء جميعاً قضوا نحبهم بسبب العمل يا سيدي؟

ـ يسلم الوطن* !.

ـ نعم.. يسلم الوطن!؟؟

ـ يسلم الوطن: هتاف يومي يردده الجنود في تركيا قبل كل وجبة طعام «المترجم».

مسح عينيه بمنديله ونادى المدير الإداري.

ـ هذا المكان ليس لي بل لهؤلاء الشباب، لذلك عليكم تلبية متطلباتهم، ضعوا جميع الدفاتر والحسابات تحت تصرفهم ليراقبوا وليدققوا...

ومن ثم التفت إلينا ثانية ليقول لنا:

ـ مروا علي عندما تنتهون من أعمالكم..

قاربت الساعة الخامسة مساءً وقرع الجرس معلناً انتهاء العمل وبذلك أخذ عمال الواردية الأولى بالإنصراف وتوافد عمال الواردية الثانية.

استمرت أعمال التدقيقات ثلاثة أيام، وخلالها لم يبق أي شيء لم نتعلمه من كشير بك عن معركتنا من أجل الحرية والاستقلال.

وهكذا تم التوصل إلى أن هذه الشكاوى والوشايات التي ملأت الملفات، عارية عن الصحة، وكاذبة ويوم انتهاء تدقيقاتنا ذهبنا إلى كشير بك بخجل لنعلمه أننا أنهينا مهمتنا وطلبنا منه عفوه ومسامحته .

ضحك بشكل أبوي وقال:

ـ يحدث ذلك.. وماذا واجهنانحن.. ليسلم الوطن.. كل شيء يأتي ويروح، ونحن زائلون من هذه الدنيا الكذابة، فقط يكفي أن يسلم الوطن... ونحن سنترك هذا الوطن لكم..

وهكذا كنا مسرورين وكأننا أصحاب هذا المصنع الكبير، أما كشير بك فقد أوصلنا بسيارته الخاصة إلى دوائرنا.. بنفسه.





كيف تقرأ المادة ؟

مهما تكن صفة المادة التي تقرؤونها، سواءً كانت سيئة أم جيدة، لا شكّ أنكم تقرؤونها وأنتم جالسون مرتاحون...! لكن إن سألتموني ماذا أفعل بهذه المادة قبل إرسالها إلى المطبعة؟

أقول: أقرؤها أمام رئيس التحرير.. كيف أقرؤها؟ آه... حسناً.. اسمعوا لأشرح لكم، فهي بالتأكيد لا تشبه طريقة قراءتكم وأريحيتها.

نعم... قبل كل شيء أتصيد فترة وجود رئيس التحرير وحيداً في مكتبه، ولحظة عدم انشغاله بمكالمات هاتفية، لأن المادة ـ أية مادة كانت يجب أن تتم قراءتها دون أية مقاطعة، أو توقف وإلاّ فإنها ستتشوه وستصبح مثل اللقيط، أنا لا أهتم بالإنسان اللقيط مثل اهتمامي بأن لا تصبح مادتي مثل اللقيط لأن ذلك يغضبني ويوتر أعصابي.

لذا أدخل مكتبه ودوسيه المادة التي كتبتها تحت إبطي والخوف يحدوني.

ـ أوه ه ه!... أهلاً وسهلاً بك يا بني يا حسن.. تعال واجلس هنا!..

أسأله:

ـ أنبدأ بقراءة المادة؟

ـ انتظرني دقيقة واحدة فقط.

وهكذا أدخن أربع لفافات بينما تكون الدقيقة قد مضت!.

في البداية وقبل كل شيء أقوم باختيار أفضل ما لدي من مواد مكتوبة ومن ثم أقرؤها بشكل جيد ـ وهذه براعة مني ـ لأنه وكما هو معروف ثمة أهمية لتأثير اللحظة الأولى، فالإنسان عندما يبدأ بالضحك ترتخي مفاصله ولا يعود قادراً على السيطرة على نفسه.

ولكن في نفس الوقت قاتل الله تلك السمة التي تلازمني ولا أستطيع التخلص منها فأنا لا أستطيع قراءة ما كتبت بيسر وأريحية أمام أحد، حيث أنني أصبح مثل طفل مذنب أمام أهله. رغم ذلك أبدأ بالقراءة والخجل يعتريني.

ـ أحد الرجال...

ترن ترن.. يرفع سماعة الهاتف:

ـ ألو...، لا يا سيدي... هنا ليس معهد الفنون الجميلة... هنا صحيفة أكبابا «النسر». يضع سماعة الهاتف منزعجاً، وأتابع ما بدأت.

ـ أحد الرجال...

طاق طاق يُطرَق الباب

- تفضلوا...

يدخل عامل الزنكوغراف «الكليشاتي» يأخذ الصور المراد تحضيرها للطباعة، ومن ثم يبدأ بالتذمر متأففاً من ارتفاع أسعار المواد، يفهم رئيس التحرير ما يقصده، لذلك يقطع عليه الطريق بأن تنفيذ أعماله ليس بالمستوى المطلوب. يخرج الكليشاتي وأتابع القراءة:

ـ أحد الرجال!..

ترن ترن، يرن جرس الهاتف.

ـ أوه يا أستاذي... أشكرك كثيراً... اللـه يطول بعمرك! جيد... الحمد للـه!.. على رأسي.. طبعاً.. بلا شك.. مع السلامة.

يلتفت نحوي قائلاً:

ـ إلى أين وصلنا؟.

أواصل قراءة ما بدأت:

ـ أحد الرجال.

يضغط زر الجرس ويسأل المدير الإداري عندما يدخل:

ـ هل حصلتم على أي رد من الشركة بخصوص الورق؟

ـ لا!..

ـ هيا إذن خاطبوها ثانية!

ـ على رأسي.

ـ أرسل وراء المدقق كي يأتي إلي.

يخرج المدير الإداري.

ـ إلى أين وصلنا يا حسن؟

ـ أحد الرجال!..

يدخل المدقق..

يسأله:

ـ هل أرسلت المواد المدققة إلى المطبعة؟

بعد جدالٍ عقيم دام أكثر من نصف ساعة لا يفهم هل أرسلَ المواد المدققة أم لا.

ـ ماذا قلنا يا حسن؟

ـ أحد الرجال!..

ترن ترن، يرن جرس الهاتف.

ـ تفضلوا هنا صحيفة النسر.. نعم يا سيدي... سررت كثيراً، شكراً.. Mersi.. انتظر من فضلك ألا تعرفون المقبرة؟.. نعم أين البلدية يا سيدي؟.. اتجهوا من ثم باتجاه جادة انقره، لا، المكان معروف وسهل ياسيدي..

وهكذا يستمر تعريف مكان الصحيفة مدة عشرين دقيقة أثناء ذلك اغتنم الفرصة لأستجمع شتات البقية الباقية من قواي كي أتمم ما بدأت به..

ـ أحد الرجال..!

يضغط زر الجرس ليقول للداخل

ـ واحد شاي من فضلك.. يا بني أحضر لي علبة «البازينتول»، أكمل يا بني

ـ أحد الرجال..!

طاق طاق يطرق الباب

ـ تفضلوا..، واي يا سيد سلطان..! أهلاً وسهلاً يا روحي ويا سيدي..

يتعانقان وتبدأ الأسئلة عن الحال والأحوال بعد ذلك يستأذن منه قائلاً:

ـ دقيقة واحدة فقط كي نتمم ما بدأنا بقراءته..

خاصية أخرى قاتلها الله تلازمني وهي أنني عندما أقوم بقراءة ما كتبت أمام أكثر من واحد ينعقد لساني وأتلعثم لدرجة أنني أبربط وأبربر بأصوات أنا لا أفهمها..

ترن ترن

ـ نعم يا سيدي... «يستشيط غضباً» كيف؟ ارتفاع الأسعار... «يغضب أكثر».. لا لن أزيد... ولا حتى عشر ليرات.. نعم.. لوازم الطباعة ارتفعت أسعارها وكذلك أجور الطباعة والكليشات وبالمقابل سعر المجلة كما هو... لا لا يمكن..

وخبط سماعة الهاتف، وحسب قانون العطالة لا يمكن أن يزول آثار الغضب بسهولة، لذلك راح يمسد صدغيه بماء الكولونيا.

طلب مني الاستمرار قائلاً:

ـ هيا اقرأ يا حسن بك..

وبعد هذا الموقف أي حسن بك، فجد جدي، ولا حتى مارك توين يستطيع الاستمرار، ومع ذلك حاولت:

ـ أحد الرجال..

يقطب حاجبيه ويقول:

ـ لا، لا يا حسن لم تكن موفقاً في كتابتك هذه المرة.

ـ نعم، يا أستاذي.

ـ هيا لنؤجل قراءتها ليوم الاثنين القادم.

ـ حاضر أستاذ.

ـ جهز مادة أخرى.

ـ حسناً يا سيدي.

بالطبع أقوم بإعادة صياغة تلك المادة وفي يوم الاثنين أقرؤها وتكون البداية «أحدهم» عوضاً عن «أحد الرجال» يسر رئيس

التحرير لهذه المادة ويقول: «موفق أنت في مادتك». و هكذا تنشر مادتي، وتجلسون لقراءتها الآن، ولكن لا أدري هل حظيت على إعجابكم أم لا ؟ . وهذا ليس مهم لأنها أعجبتني.



الرواية المترجمة

وأخيراً انتهيت من كتابة الرواية، ثلاثة أشهر وأنا أعمل ليلاً نهاراً، وكما أن الإنسان مدّاح نفسه فكذلك نحن معشر الكتّاب أيضاً.

حتى أنا، فإني فقط أقول بيني وبين نفسي «رواية رائعة» لكنني أخجل من ذلك أمام الناس.

جمعت صفحات الرواية الجديدة وتوجهت إلى إحدى الصحف عارضاً نشرها.. وهناك قالوا لي:

ـ لا ننشر روايات محلية.

ـ لكنكم، لم تطلعوا عليها!.

ـ وما الفائدة إذا كان القراء لا يستسيغون قراءة الروايات المحلية.

اتجهت إلى إحدى دور النشر وهناك عندما عرضت عليهم روايتي قالوا:

ـ لا ننشر إلا الروايات المترجمة.

اتجهت صوب دار نشر أخرى عارضاً عليهم روايتي، وهناك سمعت الإجابة ذاتها:

- إذا كان لديك رواية مترجمة فأعرضها علينا فالرواية المحليةلا تسوق بسهولة.

عجباً كأن جميع دور النشر متفقة على الإجابة.

ثلاثة أشهر وأنا أعمل ليلاً نهاراً والأمل يحدوني في كتابة رواية متميزة وهكذا بدون أن يكلفوا أنفسهم عناء قراءتها، أصبحت روايتي مثل طفل لقيط سيرمى أمام باب المسجد.

عندها خطرت لي خاطرة، معظم أصدقائي يترجمون عن الفرنسية أو الألمانية، الإنكليزية أو الإيطالية وبعد ذلك يقومون بتغيير الجونسون بأحمد ومارتا تصبح فاطمة ومن ثم يذيلونها بتوقيعهم وهكذا يصبح هذا العمل الأدبي من نتاجهم ليدفعوا به من ثم إلى الصحف والمجلات.. لكن، لِمَ لا أقوم بعكس تلك العملية؟.. جلست والرواية بين يدي، مغيراً جميع الأسماء التركية بأخرى أمريكية، بعد ذلك أخذت مخطط مدينة نيويورك لأبدل أسماء المناطق التركية بأخرى نيويوركية وأخيراً جاء دور مؤلف الرواية، اسم مارك أوبراين - Mark Obrien - مناسب أليس كذلك؟

وضعت الرواية تحت إبطي واتجهت إلى رئيس تحرير الصحيفة الذي أحبط عزيمتي منذ اللحظة الأولى وعرضت عليه روايتي قائلاً:

ـ ترجمت لكم رواية لمارك أوبراين.

ـ رائع جداً.. لكن من هو مارك أوبراين؟

آه ه ه!... ألا تعرفونه؟ أيعقل ذلك.. يا هوه هذا الكاتب المشهور مارك أوبراين... لقد تُرجمت أعماله إلى جميع لغات العال. حتى أنهم لم يجدوا ضرورة لقراءة الرواية عندما درسوا جدواها الإقتصادي وقالوا لي:

ـ هل لك أن تعطينا لمحة موجزة عن الرواية والكاتب؟.

أمسكت بالقلم ورحت أخط العبارات التالية: رواية «Struggle for life» «صراع من أجل الحياة» رواية قيّمة كادت أن تقلب أمريكا رأساً على عقب وأن تحركها من مكانها. بلغ عدد النسخ المباعة منها حوالي الأربعة ملايين نسخة بالإضافة إلىذلك فإنها ترجمت إلى جميع لغات العالم وها أنذا أقوم بترجمتها إلى اللغة التركية.

لكن من هو Mark Obrien؟

«كذلك قمت بتدبيج بعض السطور عن هذا الروائي مارك أوبراين أفندي على الشكل التالي: هو الابن الأصغر لفلاح من فلادلفيا لديه ثمانية عشر ولداً رغب أبوه أن يصبح ـ ابنه مارك ـ قساً دينياً ـ إلا أنه فصل من مدرسة اللاهوت عندما بلغ الرابعة عشر حين قام بمعاكسة مدرسه بغرز إبرة في فخذه خلسة. ففصله من المدرسة المذكورة، يعكس مستوى ذكائه الرفيع.

وهكذا كتبت سيرة حياته، مثله مثل كبار الكتاب الأمريكيين. فقد عمل في صيد الأسماك ومن ثم في التهريب وفيما بعد عمل في مجال التنقيب عن الذهب.. وكما تعرفون الحكاية.. فإنه كتب قصته الأولى عندما بلغ الأربعين من العمر وأرسلها لمجلة Let us Kiss وقد وضح فيها ضحالة أسلوبه وركاكة لغته، باختصار، يمكن اعتبار قصته هذه هرطقة وهذياناً لا معنى لهما ـ وما أود قوله هنا أيها السادة أصحاب دور النشر أن الاستمرار في عملية الترجمة هي من مصلحة روايتنا المحلية.

وهكذا راحوا يلاحقونني قائلين:

ـ رجاءً ترجم لنا أيضاً رواية لهذا الـ مارك أوبراين.

لذلك فقد ترجمت لمارك أوبراين ثمان عشرة رواية وسأستمر في الترجمة مادمت حياً، وبالإضافة للكاتب مارك.

فقد ترجمت أيضاً لذاك الـ .. رجل البوليس السري المشهور جاك لامار!.. بالتأكيد تعرفونه. فأعماله تتناقل من يدٍ إلى يد، نعم لقد ترجمت ستة كتب وفي الأيام الأخيرة قمت بتطوير العمل قليلاً فرحت أترجم عن الهندية، وحتى عن الصينية، ترجمت.

قرائي الأعزاء ثقوا أن الروايات والقصص التي تقرؤونها في صحفنا التركية ستكون ٩٩٪ منها «ملطوشة» كذلك فالأسماء وأسماء المناطق الأجنبية في الأعمال المترجمة المذكورة ما هي إلا نتاجات محلية. ومع هذه المجريات سيأتي يوم يضطر فيه الباحث المتخصص في الأدب الأمريكي إلى تعلم اللغة التركية وقراءة الروايات التركية، كذلك فأمنيتي تتجلى أن أجد مكانة لي من خلال مارك أوبراين في الأدب الأمريكي.

نشرت هذه الأقصوصة لأول مرة في عام ١٩٥٧ ضمن مجموعة أسماها المؤلف «المجانين تطلقوا» وهي المجموعة التاسعة.



بيني وبين نفسي

سابقاً كنت أضحك عندما أصادف أحدهم في الشارع أو في القطار أو في السوق يحدث نفسه، كنت أضحك لكني في نفس الوقت كنت أشفق عليه. كنت أترك كل مشاغلي وأعمالي عندما أصادف أحدهم، حتى أني كنت أسير خلفه مراقباً حركات يديه وهو يشير بفمه وعينيه إلى شيء ما، وكأنه يحدث أحداً جالساً أمامه، كذلك فإن ما كان يلفت انتباهي أيضاً، حركات شفتيه وكأنه يتمتم بشيءٍ ما. أحياناً تجده يضحك وفجأةً تنقلب الضحكة إلى غضب عارم، يسرع بخطواته ليعود إلى هدوئه ثانيةً.

نعم كنت أضحك من أولئك المساكين لكنها ضحكة مرّة، فمن يعرف ما الذي دفعهم إلى الحديث مع أنفسهم وأية مرارة جعلتهم يقومون بهذه الحركات المسلية؟.

مساء أمس... خرجت من مبنى الصحيفة مرهقاً لأبعد الحدود وقد أتعب النعاس جسمي وأصبحت كسجادة منفوضة بعصا، ولكن أي مساء؟ قلت بيني وبين نفسي:

ـ لأركب الميكرو. وإذ بأحدهم يخالفني الرأي ليقول لي:

ـ لا ياروحي من يركب الميكرو في هذا المساء الربيعي الرائع! و لم تدفع ليرتين؟

لقد عرفت ما جال في داخلي ومن تحدث معي لذلك تلفت حولي كي أعرف إن كان أحداً ما يراقبني لكن الحمد لله لا أحد.

ـ هكذا إذاً ـ قلت بيني وبين نفسي ـ .. أفضل شيء ركوب الباص.

ـ الباص مزدحم الآن ألا تعرف ذلك هيا سر على قدميك.

ـ نعم أنت محق! فالطقس رائع وجميل.

ـ طبعاً طبعاً يا.. انظر كيف يتجول الناس ويتسلون. يضحكون، امرأة مع هذا وامرأة تحتضن ذاك، وأنت تعمل مثل الحمار من الصباح حتى المساء، ومن المساء حتى الصباح أمام كومة من الأوراق البيضاء تفكر وتفكر وتكتب وتخربش وكل هدفك وهمّك إضحاك قرائك.. انظر كيف يضحكون ويتسلون.

ـ نعم أنت محق بذلك.. لا خبر ولا علم لي عما يدور في العالم.

ـ ألست إنساناً؟ ألا تعلم أن حياتك كلها بضعة أيام أيها الأبله.. اذهب إلى السينما، احضر عروضاً مسرحية.. اذهب إلى دور اللهو..، تنزّه في البساتين.

في هذه الأثناء صرخ أحدهم من خلفي.

ـ هيييه!.. يا أحمق... انظر أمامك وخلفك عندما تسير، كنت سأدوسك، لكنهم سيحسبونك علي من بني البشر وبذلك يسائلوني – التفتُ إلى الخلف وإذا ذاك الذي يصرخ بأعلى صوته جالس خلف مقود سيارة حمراء فارهة وبجانبه فتاة تفرقع ضحكاً.

ـ على الأغلب فقد عقله ألا تراه كيف يهمهم مع نفسه محركاً كلتا يديه.

تحركت السيارة مسرعة لتمر من جانبي محدثةً أزيزاً.

ـ أرأيت ذاك الحمار المرتدي ملابس بني البشر كيف يجلس خلف المقود وكيف جلست بجانبه البقرة ذات الأشهر الستة.. وكيف راح يشتمك. أما أنت فتابع جلوسك خلف كومة الأوراق بلا عطلة ولا أعياد كل همك هذه الكتابة فقط؟؟

ـ لا لا، لا تظلمني لهذا الحد!.. لست ساذجاً لهذه الدرجة.. فأنا أيضاً أعرف.

ـ ماذا تعرف؟ هراء!.. ستعمل وتعمل ويوماً ما ستحتضن الراحة وستقول حقيقة أنا واحد من الحمقى القلائل في هذا العالم!.

ـ يا هوه، أنت تحدثني بهذا الشكل لكن ماذا عساي فعله بدون عمل؟ صاحب البيت يطالب بأجرة المنزل وهذه البالوعة تحتاج إلى طعام. كذلك، وعلى أقل تقدير شراء ملابس مرة كل سنتين.

ـ ألا توجد طريقة أخرى لذلك؟ انظر حولك؟

وإذ بأحدهم يقول بينما كنت ماراً داخل حشد من الناس.

ـ هش يا حمار.

بينما قالت له التي بجانبه «اترك المسكين، فقد يكون معتوهاً، انظر كيف يتمتم مع نفسه».

ـ هل أخذت أجرة حديثك؟ هذا يليق.. انحنِ قليلاً.. لا تخف فلن تنكسر رقبتك. كل ما هنالك أنك تعطي لنفسك مكانة زائفة

ومن يهتم بك أيها الأحمق؟ كم من أمثالك مروا في هـذه الدنيـا.. هيا التفت إلى مصلحتك قليلاً!..

ـ أليس معيباً بعد هذا العمر؟

ـ من سيعيبك؟ ولماذا؟ ومن سيعيب مـن؟ هـذه الدنيـا بلغـت درجة أن الذي يموت هو الوحيد الذي يستطيع إنقاذ البقية الباقيـة مـن شرفه ولكن هيهات هيهات عندما يكون حياً. وأنت لم تعطِ نفسـك تلك المكانة، مكانة الشريف النزيه؟ ولَمَ هـذا التمثيـل؟ وكـأنك لا تكذب إطلاقاً.

ـ بعـض الأحيـان أكـذب علـى أبـي (وأحيانـاً أخـرى علـى الأولاد). والدي في الثمانين، لم أجد غير وسيلة الكذب عليه حتى أرى البسمة على وجهه ـ لدي نقود، عملي جيد، أودعـت بعـض النقود في البنك ـ هكذا أكذب على الدي كي أدخـل السـرور إلى قلبه.

ـ الكذب كذب إن كان واحداً أم ألف لذا عليك تغيير مجرى الأمور.

ـ هيا ابتعد من هنا!.. لا تبليني بما لا أطيق.

ـ أنت من الحيوانات المنقرضة، من بقايا العصر الحجري.

ـ أنت الحيوان، وأنت الحمار أيها المنحط!.

تمسكوا بي وراحوا يجرجروني إلى قسم الشرطة وهناك أشار رجل لا أعرفه وقال للضابط:

ـ شتمني وبهدلني أمام جميع الناس ولدي من يشهد على ذلك.

ـ وماذا شتمك؟

ـ قال لي أني منحط وحقير، نذل وسافل.

ـ أشتمته بهذه الكلمات؟..

ـ لا!.. شتمت نفسي.. كنت سائراً في الشارع محدثاً نفسي.

ـ أمجنون أنت؟

أطرقت رأسي خجلاً ولم أجب.

ومنذ ذلك اليوم وهم يجرجروني إلى قسم الشرطة (حتى أن رجال الشرطة باتوا يعرفوني).

ـ أوه ه ه لقد أتى صاحبنا ـ ويقهقهون.

ما أغرب ذلك!.. منذ زمن وأنا أضحك عندما أصادف أحدهم يضحك بينه وبين نفسه.

الإنكليزية في ثلاثة أيام

... قد نجد في هذه الأيام، في بعض القرى التركية الصغيرة من يجيد اللغة الانكليزية حتى لو كان واحداً أو اثنين.. لكن، كيف كان الحال في الماضي، أيام زمان؟

ففي أرجاء مدينة استانبول الكبيرة كافة، لم يتجاوز عدد مجيدي اللغة الإنكليزية أصابع اليد الواحدة، مما دفع بالكثيرين إلى الابتعاد عن تعلم الإنكليزية كلغة أجنبية، بسبب ندرة أو استحالة وجود من يعلّمها... لذلك ورغم اتخاذ القرار بتعليم الإنكليزية في المدارس، إلا أن إيجاد مدرس لها، كان ضرباً من المحال.

بحثوا طويلاً، وأخيراً، وجدوا إمام مسجد «إدرنه كايه» الذي تعلم الإنكليزية في الهند عندما اقتيد إليها بعد أسره في فلسطين، إبان الحرب العالمية الأولى..

هكذا وجدوه بعد سنوات طويلة، عندما كانوا يبحثون عن مدرسين بالسراج والفتيلة..

وبدأ عمله في مدرستنا.. وكنت من المجموعة الأولى التي درست الإنكليزية في المدراس...

في البيت، كنت أظهر للجميع أنني أتكلم الإنكليزية مع مدرسي. كان أبي المسكين يصدق ما أقول ويفرح بذلك.

ذات مساء، ركبت المركبة النهرية برفقة والدي متجهين إلى «الهيبلية» وكان برفقتنا بعض أصدقائه، وجلس أحد الأجانب في مواجهتنا وهو يبربر بكلمات غير مفهومة...

سألني والدي:

ـ من أيّ قومٍ هذا؟

أجبته مظهراً فهمي لما يقول:

ـ إنكليزي..

ـ لِمَ لا تتحدث معه بالإنكليزية؟!..

راح الجميع يلحّ عليّ كي أكلّمه بالإنكليزية، أبي وأصدقاؤه:

ـ هيا حدّثه، نعم، حدّثه!..

أما ذلك الأجنبي فلم ينقطع عن لغطه لحظة واحدة..

استجمعت كل ما لدي من مخزون لغوي، واتجهت إليه، غير مهتم بالنتائج. قلت له:

ـ فات إز يور نيم؟

راح الرجل يفرقع بكلمات غير مفهومة. وفي هذه الحالـة، لا يجوز السكوت لذا تابعت وكأنني فهمت ما قاله:

ـ ماي نيم إز هسن..

غضب الرجل، عرفت ذلك من نبرة صوتـه المرتجفـة.. آه لـو تقترب «الهيبلية» وأتخلص من هذه الورطة التي لا أحسد عليها:

ـ هاو آر يو؟

وهنا، لفـت نظـري أحـد الجالسين علـى يسـاري بضحكتـه المخفيـة.. الـتي سرعان مـا ارتفعـت لتصبـح قهقـه.. آه، حقيقـة تبهدلت، لكن التراجع خطأ. لذا قلت:

ـ وات إز ذيس؟ هاف... يو بنسل؟ تنك يو؟..

استشاط الرجل غيظاً، حتى أنه وقف ثم جلـس محركـاً يديـه بعصبية وهو يبربر.

ـ ذيس إز ماي بوك.

هنا صرخ الرجل مشيراً إلى ساعته، أما أنا، فقـد اقـتربت منـه ناظراً إلى ساعته، لأظهر للحـاضرين فهمـي لمـا يقـول. بعـد ذلـك

أصدرت صوتاً من سقف حلقي بوساطة لساني، مبيناً استغرابي، وهززت رأسي وقلت:

- نووو، نووو!!!..

أما ذلك المقهقه، فقد أدار وجهه للجهة المقابلة، حتى لا يخجلني، بينما مدَّ الأجنبي يده ثانية مشيراً إلى ساعته، مبربراً كعادته بما لم أفهم، ورحت أشاطره الصراخ:

- ماي نمبر إز فورتي وان.

وهكذا أخذ كل واحدٍ منا يصيح كيفما اتفق...

- دو يو درينك ووتر؟.

سألني أحد أصدقاء أبي:

- ماذا يقول هذا الرجل يا بني؟

آخ... علقنا! ماذا سأجيب الآن؟ هيا، لا حاجة للتوقف:

– إنه يتأفف من بطء المركبة يا عمي، يقول مضى كثير من الوقت، انظر إلى الساعة، لقد انطلقنا في الخامسة والنصف و لم نصل حتى الآن..

- حسناً، وبمَ أجبته؟!..

- قلت له: لا تغضب قد تكون ساعتك غير دقيقة..

لم يستطع الرجل الذي يقهقه الصمود أكثر، فاتجه صوب أسفل المركبة، بينما تابعت حديثي مع الأجنبي، دون أن يفهم أحدنا الآخر... وكنت، في الوقت نفسه:

أترجم ما يدور بيننا لأبي وأصدقائه. في خضم هذا الهرج والمرج، وصلنا «هيبلية»... وعندما تأهبنا للنزول، اقترب مني المقهقه قائلاً:

ـ هذا الرجل ليس انكليزياً.

ـ لم ينتظرني لأقول له «أعرف ذلك فهو أمريكي» حتى بادرني قائلاً:

ـ هو ألماني، لكن، أحسنت لم تكن سهلاً أيها الشقي الصغير، استطعت إغضابه بشكل جيد..

هكذا مرت ترجمتي الأولى، أما الثانية فلم تكن ناجحة بهذا القدر.

أذكر أنني كنت في الصف الثاني الإعدادي، وهذا يعني أن معرفتي باللغة الإنكليزية أصبحت أفضل. ومع ذلك فقد كان لترجمتي الأولى وقعٌ خاص عند أبي رغم مرور الزمن.. فكثيراً ما كان يتبجح فخوراً بها، ويتحدث عنها للرائح والغادي.

ذات صيف سكنت عائلة انكليزية في قريتنا مقابل بيتنا وكان أبي يصرُّ كثيراً على زيارتهم لنتعرف إليهم. وكانت مشكلتي الكبرى أني لا أستطيع القول «وكيف سنتفاهم؟» لذلك كنت أتهرّب وأختلق أعذاراً وحججاً ما أنزل لله بها من سلطان.. لكن جاء اليوم الذي أمسكني فيه أبي بيدي، وذهبنا إليهم... عبرنا حديقة بيتهم، وطرقنا الباب، خرجت فتاة شابة، بدا عليها الاستغراب، قلت في نفسي «ماذا سأقول؟».. طلب مني والدي أن أكلمها قائلاً:

ـ هيا.. حدثها...

نسيت الانكليزية تماماً، قلت له:

ـ ربما هي لا تعرف الإنكليزية يا أبي.

غير أنها كذبتني عندما قالت بالإنكليزية:

ـ ماذا تريدون؟

فهمت، ولكن كيف السبيل للرد عليها؟

لاحظ أبي ما أصابني، فقال لها بالتركية:

ـ يا ابنتي، المسيو في البيت؟

عندها انحلت عقدة لساني لأتحدث إليها خالطاً التركية بالإنكليزية:

ـ أين المستر؟

أعتقد أنها فهمت ما قلت، إذ فتحت باب البهو طالبة منا الدخول.

في تلك الأثناء، دخل رجل طويل ونحيف، كأنه من رجال الأغراندیز، بارد، مصقّع، «إنكليزي حقيقي» نظر إلينا باستغراب.

قال أبي:

ـ هيا، كلمه يا بني..

ـ وما أقول؟

ـ قل له أننا جيران أتينا لنتعرّف إليكم...

غرقت في عرقي خجلاً، ونسيت بالطبع الكلمات التي حفظتها، أما هو، فقد أخذ يتفحص أبي من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.. ويتفوه بكلمات قاسية النبرة...

آه... تذكرت، لقد طلب مدرسنا «الإمام» حفظ قصة للأطفال عن ظهر قلب، تلك القصة، كانت تحكي عن بطولة فأر في قرية ما.. قصة سهلة وجملها قصيرة، فبدأت بروايتها:

ـ ذات يوم عاش فأر صغير...

انحولت عينا الإنكليزي الطويل، عجباً مما سمع، لم أكترث، تابعت:

ـ جاع هذا الفأر الصغير وراح يبحث عن طعام..

أخذ الإنلكيزي ينظر مستغرباً، تارةً إليّ، وتارةً إلى أبي، وكأن لسانه انعقد...

ـ دخل الفأر غرفة المؤونة، ولكن، لحظه السيء، كانت قطة في ذات المكان.

أشرق وجه أبي، على الرغم أنه لم يفهم ما أقول.

ـ قفزت القطة محاولة الإمساك بالفأر، إلا أنه استطاع الفرار، مما أدى إلى ارتطامها بقطرميزالمربى، حاولت الإمساك بالفأر ثانيةً، إلا أنها لم تستطع، مما أدى إلى انقلاب زجاجة الزيت...

أخذت أسارير الإنكليزي تنبسط، على الرغم من أن«وجهه لا يضحك للرغيف الساخن» بعد ذلك ... ابتدأ يضحك مماشجعني أكثر.

ـ حاولت القطة الإمساك بالفأر، إلا أنها لم تستطع أيضاً...

لم ينبس الإنكليزي إلا بكلمة:

ـ يس.

ـ أوقعت القطة كيس الطحين..

ـ يس.. يس..

راح الإنكليزي يقهقه، بعد ذلك ألقى بيديه على أكتافنا طالباً منا الجلوس.

ـ مرَّ الفأر...

ـ يس .

تستمر الحكاية، القطة تحاول الإمساك بالفأر الذي يقفز من زاوية إلى زاوية، وهكذا، انقلبت محتويات غرفة المؤونة، وفي النهاية، استطاع الفأر أن ينسحب عبر شقٍّ صغير في الجدار، أما صاحب البيت، فعندما دخل، وجد قطته وسط هذه الفوضى فضربها لما فعلت...

كان الإنكليزي مسروراً من لغتي المرقعة، لذلك أكرمنا بتقديم الشاي والمعجنات.

وعندما كان يكلمني بالإنكليزية، كنت أقول له ضاحكاً:

ـ يس... يس..

عندما خرجنا من بيتهم، قلت له «جود باي» واقترب أبي ليسألني:

ـ ماذا قلت له حتى أضحكته لهذه الدرجة؟

ـ لاحظت يا أبي أن «وجهه لا يضحك للرغيف الساخن» فرويت له بعض الطرائف..

.. أما ترجمتي الثالثة، فقد قمت بها عندما كنت في الصف الثالث الثانوي...

كنت أعبر الجسر عندما التقيت بشابين إنكليزيين يسألان العابرين عن شيءٍ ما، دنوت منهما، وانحشرت بينهما، وعرفت فيما بعد أنهما يريدان الذهاب إلى «بوغاز» ويريدان معرفة من أين يمكن أن يستقلا المركبة. كانت لدي القدرة على محاورتهما فقلت:

ـ هيا، لنذهب سوية، فأنا ذاهب إلى هناك.

هدفي من ذلك، هو استغلالي لهما، لتقوية لغتي، إذ أن مدرّس اللغة الإنكليزية آنذاك ـ ضابط بحري متقاعد ـ كثيراً ما كان يقول:

ـ الممارسة تصنع الكمال.

وهكذا صرنا نتفاهم بشكل جيد، أحدهما كان مرتدياً سترة رياضية خط عليها R.A.C سألته عن معنى تلك الأحرف، أجاب:

Royal Air force ـ القوات الجوية الملكية.

فقد كان ـ كما علمت ـ ضابط احتياط، وقائد كتيبة طيران، وعمل مهندساً ـ في نفس الوقت ـ عند إنشاء مصنع كارابوك للحديد والصلب. عندما هممنا بشراء تذاكر الركوب قال لي:

ـ كيفي كلير..

لم أستطع فهم هذه الكلمة بأي شكل من الأشكال، وهو بدوره كان محرجاً لعدم استطاعته شرح ما يقول، فكان يصرخ: ـ كيفي كلير..

.. كان بحوزتي قاموس صغير، استعنت به غير أني لم أجد هذه الكلمة أصلاً...

ـ قلت له:

ـ وما هذه الـ «كيفي كلير»...

قال:

ـ كيفي كلير... ألا تعرف كيفي كلير....؟

اجتمع الناس حولنا، ليعرفوا مـا يحـدث، عندهـا خـرج أحـد عمال المراكب ليقول لي:

ـ يا هوه... ساعتان و لم تفهم وهو يقول لك كفاكلار.

آه... إذن يريدان الذهاب إلى كفاكلار... وهو يقول: كيفي كلير..

اشترينا التذاكر، وصعدنا إلى المركبة، واتجهنا إلى كفـاكلار ، كان كل واحد منهما قد علّق في رقبته منظاراً، وآلة تصويـر، بعـد ذلك راحا يصوران تلك المنـاطق. عنـد العـودة، وعندمـا توقفـت المركبة في بيكوز، صعد رجـلا شـرطة واعتقـلا الشـابين... أذكـر أيامها أن مزمار الألمان كـان يصـدح أكـثر، بينمـا كـانوا يعتـبرون الإنكليز والأمريكان مجرد أجانب...

توسلا إليّ كـي لا أتركهمـا، وهكـذا اتجهنـا سـوية إلى مخفـر الشرطة، فهمت فيما بعد مشكلتهما، إذ أنهما عند عبورنا منطقـة «بوغـاز» نظـرا بالمنظـار، وصـورا صـوراً بآلـة التصويـر، فاسـتغل أحدهم فترة توقف المركبة، فنزل وأعلم خفر السواحل:

إن أحد الكفـار يصـور منطقـة بوغـاز المباركـة... بدورهـم، أعلموا شرطة «بيكوز» وهكذا ألقـي القبـض عليهمـا... بعـد مـا

أخذت إفادتهما بوساطة ترجمتي اقتيدا بصحبة رجليّ شرطة إلى مديرية الأمن في استانبول. وهناك أطلق سراحهما، بعد أخذ إفادتهما للمرة الثانية، ومصادرة أفلام التصوير...

توجها بالشكر لي لمساعدتي إياهما، فدعيت للغداء في فندق «باركوت» حيث ينزلان. قبل الطعام، وضعا زجاجة ويسكي أمامي، «أتعرفون أنه ـ في تلك الأيام ـ لم تكن غير قلة قليلة تعرف الويسكي؟» أما أنا، فهذه هي المرة الأولى التي أشرب فيها...

كانا يملآن كأسي سوية كلما فرغ، رغبت أن أطلب منهما أن يملأ الكأس كل واحد على حدة، إلا أنني لم أستطع بسبب السكر.. حتى أنني نسيت معنى «كل واحد على حدة» بالإنكليزية... فكنت أقول لهما:

ـ «فانار ـ فانار» ـ فاحد، فاحد.

... هكذا مرت ترجمتي الثالثة بشكل مضحك وفاشل... أما ترجمتي الرابعة فستعجبكم حتماً..

في بداية المساعدات الأمريكية لتركيا، كان من المفترض أن يصل وفد أمريكي لهذه الغاية... أما الدائرة التي كنت أعمل فيها

«لايجوز ذكر اسمها لأنها كانت دائرة سرية»، فقد بدأ القيمون عليها بالبحث عن مترجم، لكن عبثاً،... وأخيراً، وجدوني.

أرسل رئيس الدائرة يطلبني، وعندما قابلته، كان هناك ثلاثة أشخاص.. قال لي:

ـ اخترناك مترجماً لرئيس الوفد...

ـ «أمان يا سيدي»، لكن، أنا لا أجيد الإنكليزية البحرية!.

ردّ علي أحد الجالسين بقساوة قائلاً:

ـ وكيف لا تجيد؟ ... لا!... تجيد.

ـ يا سيدي لَمَ أتذرع عدم المعرفة ؟ خاصة وأنني أتشرف بهذه المهمة الموكلة إلي لكن... يا سيدي أنا لا أجيدها، أوافق بكل رحابة صدر فيما لو كان رئيس وفد المساعدة الأمريكية يجيد التركية، وبذلك نتجول في شوارع استنبول سوية.

ـ «أمان يا ربي» ولَـم يجيد الأمريكي التركية؟.

ـ حسناً، حسناً لأعلمه التركية إذاً، فيما لو كانت إقامته طويلة هنا.

ردّ عليّ أحد الجالسين قائلاً:

ـ تجيد.. تجيد..

ـ ما علمت بإجادتي للغة الإنكليزية، لكن، طالما أنكم تعلمون بذلك، هذا يعني أنني أجيدها.

ـ طبعاً تجيدها.. لقد اطلعنا على سجلك الذاتي، لقد درست الإنكليزية في المدرسة..

الله الله. ما بهم وهل أنا الوحيد من درس الإنكليزية في المدرسة؟!!.

ـ يا سيدي قلت لكم «أنني لا أجيدها... ابحثوا على من يجيدها حتماً ستجدونه.

نعم نعرف أن هناك من يجيدها خارج هذه الدائرة، لكن، وكما تعلم أن هذه المهمة سرية، وسرية للغاية لذا من المحال تكليف أحداً آخر بها، ولا تنسَ أننا اطلعنا على سجلك الذاتي وقرأنا العبارة التالية في حقل اللغة الأجنبية «يجيد الإنكليزية بشكل جيد ويتحدث بطلاقة تامة. لذا واستناداً لهذه البيانات نعتبر أنك الشخص الوحيد المرشح لهذه المهمة خاصة أنك شخص مؤتمن الجانب.

وهكذا تمت ترجمتي الرائعة.

ثلاثة أيام على قدوم الوفد... ثلاثة أيام وأنا أعمل ليل نهار... لاستعادة ما نسيت خلال السنوات الطويلة.

بداية حاولت تقدير ما يهم رئيس الوفد.. نعم سيسألني كذا وكذا وكذا. وهكذا أعددت الأسئلة الضرورية ومن ثم جهزت الرد عليها ودونتهما في كراس صغير بعد حفظهما عن ظهر قلب.. وفيما لو سألني منها لتفاهمنا بشكل رائع. بعد ذلك قلت «بيني وبين نفسي» بالتأكيد سنتجول في أرجاء مدينة استنبول لذا علي الاستعداد لتقديم شرحاً وافياً عن أوابدها التاريخية وهكذا دونت هذه المعلومات أيضاً، كذلك وكما علمت أن رئيس الوفد أميرال بحري عملت على حفظ بعض المعلومات المتعلقة بالبحر، حفظت كل شيء عن بربروس وحياة الريس تورغوت.

وأخيراً وصل الوفد، قابلتهم في مكان إقامتهم، ومن ثم صعدت إلى غرفة رئيس الوفد وبسهولة قدمت نفسي كمترجمه الشخصي. تفوه ببعض الكلمات التي لم أفهمها.

ليقل ما يشاء، أما أنا فسأقول ما حفظت. خرجت بصحبة الأميرال إلى الشارع وهناك كنا نتحادث، لكن كل واحد منا،

كان يعزف على وترٍ مختلف... لذلك انزعجت كثيراً، فكـرت، لَمَ لا أقوم بحيلة مفادها أن أسأله باستمرار:

- كيف كان سفركم يا سيدي؟

نطق كلمات لم أفهمها.

- إلى أين ستتجهون فيما بعد؟

أجاب، و لم أفهم أيضاً... وهكـذا، رحـت اسـأله باسـتمرار، بذا تخلصت من الإحراج، لكنه تضايق من ذلك حسبما أوحت لي تصرفاته.

أليس غريباً أنه لم يسألني أي سؤال من الأسئلة التي استعددت للإجابة عنها الأسبوع الماضي؟ لذلك... بدأت أتحدث عن بربروس وعن فتح مدينة استانبول، مسكين ذلك الأميرال، لقد صمت و لم يعد ينبس ببنت شفة.

عدنا لتناول طعام الغداء في الفندق، انتظرته في البهو، لم يأتِ... اقترب أحد العاملين ليخبرني أن الأميرال سافر إلى أنقرة.

لقد عدّل الوفد برنامج زيارته بسبب ترجمتي، على كل حال، فقد استلمت رسالة بعد شهرٍ من الزمن، عليها ختم أمريكي... فتحتها، فإذا هي من رئيس الوفد، جاء فيها:

ـ نتوجه إليـك بجزيـل الشـكر علـى مسـاعدتنا في استانبول، وعلى مشاهداتنا، وعلى خدماتك الناجحة.

ـ منذ ذلك اليوم، وعبر سنوات طويلـة، وأنـا أعمـل بشـكل جدي لدراسة اللغة الإنكليزية، لذلك فـإني أستطيع التحـدث مـع الإنكليزي أو الأمريكي بشكلٍ جيد، لكـن، لِمَ لا يستطيعون هـم التحدث معي بالإنكليزيـة، مـن الطبيعـي أنهـم لـن يستطيعوا لأن عليهم أن يجدوا ويجتهدوا في تعلم اللغة، كما اجتهدت...



لمَ الخوف ؟

من؟... أنا.. هاه؟ جبان؟، هه !... ومن قال لك إني أخاف؟.. الكل؟.. وكيف؟ ومتى؟ ومن عرف عني الجبن؟؟.. كذاب، كذاب كبير، أنا لا أعرف الخوف، ولا أخاف أحداً... ولَمَ أخاف؟!.. أساساً لَمَ يخاف الإنسان من سواه..؟

ثم لماذا أخشى أحداً...؟؟!!

آ... الخوف من الله؟ هذا شيء آخر؟؟؟ شيء طبيعي... ألا يقال إخشَ مِمن لا يخشى الله؟ أليس كذلك؟ نعم.. يُخشى من ذاك الذي لا يخاف ربه... أفهمت ما أقصد؟ ومن غير الله لا أخاف حتى أني لا أعرف ما هو الخوف... فكل امرئ هو إنسان مثلي، إذن لَمَ الخوف؟..

كيف؟.. من أمي وأبي؟... أوووه... هذا كان من زمان عندما كنت صغيراً، من الطبيعي أن يخشى الطفل أمه وأباه...! حتى كم سنة؟..

المرء يبقى صغيراً في عيون والديه مهما كبر، أليس كذلـك؟.. وأنا أيضاً كنت كذلك حتـى بلغـت السادسـة والأربعـين... بعـد ذلك توفيا.. يرحمهما اللـه.. لا !.. ليس صحيحاً ما قلتـه، فأنـا لا أخاف منهما، أؤكد ذلك.. لأنهما ماتا..

نعم يا سيدي؟... من الأموات؟ هه..

هذا غير معقول، أيخيفني ميتٌ ؟؟ أصلاً لَم الخـوف؟ ومـاذا سـيفعل الميت...؟ يكفيه أنه ميت!! خلاصة الأمر أني لا أعرف الخــوف.. قد يجوز ذلك لو أنه لم يمت بعد.. لكنه بعد أن مات وأصبـح جثـة هامدة... لن يمكنه أن يخيف أحداً... كيف؟ عندما ماتت خــالتي؟ آ.. لك ن كان ذلك ليلاً، و لم يكن ثمة أحد غيري في البيـت... سمعـت صوتهـا عنـد منتصـف الليـل، فهرعـت نحو غرفتهـا... لكنهـا... كـانت قـد فـارقت الحيـاة... وفي ذاك الوقــت مــاذا عسـاي أن أفعل؟؟.. ذهبت إلى الفندق.. لكن ليس بسبب الخوف!!.. أخاف من ذلك الولد في حارتنا؟؟ لا... أبداً.. لم أخف منه إطلاقاً.. بــل أفعل كما يقول المثل : ابتعد عن الشر وغنِ له.. أطـل مـن الشـرفة،.. عندما يكون في الحارة... لا أخرج من البيــت، وعندمـا لا يكـون هناك أعبر الزقاق!..

ماذا تفضلتم..؟ من أساتذتي...؟ لا.. ليس صحيحاً... فأنا لا أخاف أساتذتي... وما تقصده بالخوف ما هو إلا شعور بالإجلال والاحترام... تصور... حتى عندما يضربونني لا أكن لهم إلا كل تقدير واحترام... ماذا؟.. بسبب خوفي هربت من أستاذ التاريخ حين كان يضربني؟؟... لا.. أهرب خوفاً منه... بل احتراماً وتقديراً لهيبته... ما هذا الهراء؟؟..

أيعقل أن يخاف الطالب أستاذه؟

ماذا تفضلتم؟ من الامتحان؟.. بالتأكيد لا... أرتجف حين أدخل قاعة الامتحان... لكن ليس بسبب الخوف، بل بسبب التوتر. كيف؟؟ بولت على ثيابي عند باب قاعة الامتحان؟! ما هذا الافتراء؟ كان ذلك بسبب التوتر... وأي واحد يفعلها عندما لا يلحق بنفسه إلى المرحاض... نعم يا سيدي... حتى من الفشل لا أخاف... هل أخشى الرسوب؟ يا الله ما أكثر الكذابين... فطالما أني لم أمت... إذن... لدي الفرصة في النجاح في مراتٍ قادمة فيما لو رسبت... أليس كذلك؟ لكن... أخشى زوجتي؟... ومن صاحب هذه الأكذوبة... أسألكم بالله جميعاً، أيخاف الزوج، نعم... أي زوج، من زوجته؟!!... لا يمكن تسمية

ذلك خوفاً.. إنها المرأة... ولكي تسلك ماءك عليك بالتساهل معها وأن تأتيها من الأسفل كي لا تتفاقم المشاكل في البيت ويسمعك الجوار، ولكي لا تفسد تربية أطفالك...!! وإلا... لماذا أخاف زوجتي...؟؟... أنا بحياتي لم أخشَ أحداً حتى أهاب زوجتي... هه! هه هه..

عندما كنت في الخدمة العسكرية؟... وماذا بعد... من قائد الفصيل؟ أنا لا أهاب قائد الكتيبة بقدره وجلاله حتى أخشى قائد الفصيل، أنا يا سيدي... عندما أضع نفسي في خدمة وطني لا أخشى أحداً. هو إنسان مثلي... ومثلك، إذن... لَمَ الخوف؟؟... ماذا؟ عندما رفعني قائد الكتيبة فلقة...؟ لا... هذا شيء آخر... هو قائد كتيبة وصاحب قرار... قد يضرب... وقد يحب... ولا يجوز لأحد أبداً أن يتدخل في ذلك... ومع كل هذا لا أخاف منه...

إني طوال حياتي لم أخف... ولن أخاف أبداً... أي والله... قلت... في طفولتي، لم أخف لأنني كنت أتوارى عن الأنظار خشية أن يحصل شيء..

من الظلمة؟.. وهل الظلمـة مخيفـة؟ هـاه... ومـا الفـرق بـين الظلمة والنور؟ كلاهما سيان... أنا لا أخاف المرور قـرب المقـابر ليلاً... لأني أساساً لا أمرّ بها، ما دخلي في المقابر حتى أمرّ بها ليلاً، أصلاً أنا لا أمرّ بالمقابر نهاراً حتى أفعل ذلك ليلاً...

ماذا؟... واللـه، أنا لا أصفر أو أغني ليلاً... صحيح... لكـن ليس بسبب الخوف بل لأنـي أغـني وأصفـر في النهـار... إنهـا عادة... هه... لكن بيني وبين نفسي، وبذلك لا يسمعني أحـد... أأخاف من الأحلام؟... ماذا...؟ ما هذا الافـتراء، لا... صراخـي أثناء نومي ليس بسـبب الخوف... بـل أصـرخ في نومـي لأنـي لا أصرخ في صحوي...

كيف...؟ أخاف من رجال الشـرطة؟ والحـراس ومـا شـابه؟ كذلك من خدم الفنادق؟ وسائقي السـيارات...؟!!! ومـن أشـاع ذلك؟؟ أنا أساساً لا أسير حيث يوجد بوليس موليـس... سـجون مجون... شرطة مرطة حتى أخاف... وكل ما قيل هو مجرد كذب وافتراء...

والسكارى والمجانين؟؟.. واللـه كذب... أنا لا أخـاف أحـداً منهم.. أخاف الغـوص في الفـراش لممارسـة...؟ أأنـا لا أنـدس في

الفراش بسبب الخوف؟ ... لا... بل بسبب الإرهاق لأني أعود من عملي متعباً... وماذا؟ أخاف النساء بسبب قصر...؟ ما هذا الهراء يا بني آدم؟؟ من الذي يشيع حولي كل هذه الترهات؟؟ كل هذه الأقاويل كذب بكذب...

كيف؟؟ من البقاء وحدي في البيت؟؟ ومن النقاشات الحادة؟.. والتأخر خارج المنزل ليلاً؟... من أصدقائي في العمل؟؟ هه... من مدرائي؟؟

من الموت في حادث سيارة؟؟.. من الجوار...؟ من اجتماع لجنة البناء؟ ومن ماذا بعد؟ هه... ماذا بقي؟؟

يا سيدي أنا لا أخاف... لا... أخاف... حتى أنني أسميت ابني الأكبر جسور.. والأصغر مرعب... لدي خوف من المرض؟ بالتأكيد لا... فأنا لا أخاف المرض... لماذا؟ قلت لماذا؟ نعم نسيت ما سألت، أنا هكذا ومنذ مدة طويلة أنسى حينما أسأل هكذا أسئلة... لا.. لا أخاف المرض ولا الموت...

ألم يقل الفيلسوف «نحن لا نعرف ما هية الموت لأننا أحياء، وعندما نموت لا نعرف ماهية الموت»... إذن... لمَ الخوف من الموت؟؟ كم هو محق فيما قال...

الخوف من الغد؟ ماذا تقصد؟ غداً الأربعاء... أنا لا أخاف من الأربعاء ولا من الخميس.. من غدي؟ آه... تقصد البقاء بدون عمل... الله أعلم... إذن... لمَ الخوف من الغد... فحتى الغد الله كريم، لكني أخشى أن تكون رغبتكم استدراجي في الكلام.

أخاف من الممنوعات؟... لا... فكل الممنوعات وجدت من أجلنا... فشكراً لمسؤولينا الذين فكروا بمصالحنا وأوجدوها... أنا لا أدوس عليها ولا أتجاوزها، إذن... لمَ أخاف منها ؟؟ طالما أننا في البيت دائماً نكرر عبارات «سيكون خيراً إن شاء الله»، «ماشاء الله يتحسن»، «وشكراً لبلوغنا هذه المرحلة»... لذا فنحن لا نخاف من الرعد والبرق والصواعق؟... أيعقل ذلك...؟ هه... وهل هذه الظواهر العادية تخيف المرء...؟ يا أخي أنا لا أخاف... إفهم لا أخاف حتى لو ظهر أحدهم أمامي فجأة!!!

ماذا؟ أخاف أن يراني أحدهم عندما أدس اصبعي في أنفي... آه... ما أكثر أولئك الثرثارين.

أخاف من الدعوة للشهادة؟... لا... فأنا لم أشهد و لم أدع بحياتي للشهادة.. حتى أني أجيب عندما يسألوني... بلا أعرف... لم أشاهد...

أخاف عندما يطرق الباب أن يكون الطارق زائراً غير مرغوب به، أهكذا؟... ومن الرسائل والمغلفات الرسمية؟ أو من استلام دعوة للمحكمة؟؟ أو للتحقيق؟ هل أخاف من هذا وذاك لأنها قد تكون بطاقة دعوة لتسديد أقساط الديون للبنك... أقسم لك... أن كل هذا كذب بكذب...

أخاف من التوقيع؟... لا ياعم... أنا لم آكل ما يؤلم بطني حتى أتوجع!... البعض يقول إني أخشى التوقيع على جداول الرواتب عند القبض... لا يا عمي... كل هذا مجرد افتراء...

تقصد أني أخاف من التعليمات والأنظمة؟... أتوجس من الهاتف؟ كيف؟... من أن يكون مراقَباً؟ هه.. ليُراقَبْ... وما شأني في ذلك؟

أنا لا أتكلم فيما يدعو للخوف أساساَ... وبنفس الوقت أضع السماعة فور شعوري أن أحداً ما يتنصت... أتسمي هذا التصرف خوفاً؟..

من ماذا؟ من عصفور الكنار المحبوس في القفص...؟ آه ما هذا الهراء؟... من الأصص والقرنفلات المزروعة فيها؟... من المزهريات؟ من زر الكهرباء؟ لا... لا يا دكتور أنا لا أخاف كفى

لـن تخيفـني... فأنـا لا أخـاف يـا دكتـور... لا أخـاف أحــداً... دكتور... ماذا ؟... أنا لا أخاف مــن أحـد... لكـني أخـاف مـن نفسي يا دكتور... أم م م... لا أخاف... ما الداعي للخوف؟؟

جذوة الخوف لن تنطفئ يا دكتور، أليس كذلك...؟

لكني أخشى أن يكون حديثك استجواباً لي!!!





الشرطي الحقيقي

تحضرني تلك الحادثة في عيـد الأضحى مـن كـل عـام، الـتي جرت في عـام ألـف وتسـع مئـة... وكـم؟ أظـن ألـف وتسـعمائة وأربعة وثلاثين، حينها كان عمي حياً.

أما أنا فقد كنت طالبـاً في المرحلـة الثانويـة، لـدى عمـي دار جميلة في قرية «إيرين كوي» كثـيراً مـا كـان يدعونـا لزيارتـه، مـا أروع ذلك، عمٌّ غنيٌّ ودارٌ جميلـة، لكـن، مـا يزعجـني بـالأمر هـو حديثه الدائم عن ذكرياته العسكرية لدرجة الصداع، عمي هذا ذو الثمانين عاماً.

ليس عنده شغل ولا مشغلة، فهو لا يتوقف عـن الحديـث إلا عند النوم فقط، لقد أعاد على مسامعنا هذا الحديث أكثر مـن مئـة مرة وفي كل مرّة يبدأ حديثه بعبارة «حفظي حقي باشا»...

كان عمي قائد مدفع في فوج المدفعية الثانية لكن في أية فرقة، لا أدري. يتحدث بحماسٍ منقطع النظير وكأنـه في الجبهـة، أحيانـاً

ومن فرط الانفعال يمتشق سيفه من غمده المعلق على الجدار ويصرخ بأعلى صوته:

ـ المسافة ألفا متر، ثلاث حقات بارود يا حقي... نار!..

ذات يوم حاصر الأعداء مدفعية عمي وكما يقول:

ـ لم نكن المذنبين، أربعة أيام بلياليها لم تذق أعيننا طعم النوم.

ـ ولَمَ لم تناموا يا عمي ؟ ـ سألته مستفسراً ـ، وماذا فعلت يا عمي الباشا؟

كان عمي برتبة نقيب، إلا أنه كان يعتبر نفسه باشا «جنرالاً» لأن أصدقاءه كما يقول كانوا برتبة باشا، لذلك راح يفرض على الجميع أن يدعوه بلقب الباشا حتى بات الجميع يظنونه جنرالاً حقاً.

ـ أربعة أيام لم ننم، وماذا حصل؟، نفذت ذخيرتنا، انتظرنا الإمدادات، تأخرت، لم تأتِ، وبعدها تهاوينا ولم نستيقظ إلا على صوت جلبة قوية. ظننا بداية أنه الإمدادات، إلا أنها قوات العدو تحاصرنا.

وهنا سألته باهتمام:

ـ إيه وماذا بعد يا عمي الباشا؟

ـ بعد ذلك اخترقنا صفوف العدو، بعد ما غلبهم النعاس، وبذلك حاصرناهم وقمنا بأسرهم. وهكذا ترقت رتبتي إلى الجنرال «الباشا» وبدوري قمت بترقية عناصري.

إيه يا بني، العسكرية كانت صعبة في أيامنا وليست ألعوبة كما هي في هذه الأيام.

وكما قلت فكثيراً ما كان الحماس يأخذ عمي أثناء حديثه ويمتشق سيفه ويزأر مثل لبؤة فقدت صغيرها:

ـ المسافة ألفا متر... ثلاث حقات بارود يا حقي. المدفعية الثانية نار...

لقد مللنا من سماع هذه الأحاديث لدرجة أن زيارتنا له اقتصرت على الأعياد فقط. كنا نزوره وننام عنده ليلة واحدة فقط.

ذات عيد طلب ابن عمي الصغير مرافقتنا في الزيارة بحجة أنه لم يلتقِ بعمه منذ عشر سنوات.

قلت له حسناً لكن احرص أن تدعوه بلقب الباشا كي لا يغضب منك لأنه ترفّع بعد عشرين سنة من رتبة نقيب إلى باشا.

ذهبنا إليه مع جميع أفراد عائلتنا الثمانية. ويعلم الله كم مرة سمعنا حديثه عن العسكرية حتى حان موعد النوم في المساء. وبما أن البيت كبير فقد نام كل واحدٍ منا في غرفة بمفرده..

في تلك الأيام، كانت الهواتف نادرة، لكن عمي كان يملك واحداً، على الرغم من قلتها في استانبول.

استيقظت في منتصف الليل على صوتٍ ظننته صوت لص، خرجت إلى الرواق، وإذا بزوجة عمي بيدها سماعة الهاتف.

- ما الحكاية يا امرأة عمي؟

- هس، منذ ساعات وأنا أسمع صوت لص في الأعلى، لذلك اتصلت بالشرطة، وأخبرتهم بذلك، أثناء ذلك نزل أحدهم من الطابق العلوي بشكل غير طبيعي، وإذا به ابن عمي الصغير .

- ما بك؟

أجابني:

- لا تسأل، قل لي أين المرحاض، بحثت كثيراً في كل الغرف، فتحت كل الأبواب، لكنني لا أعرف مواضع أزرار مصابيح الكهرباء. منذ ساعتين لم أترك باباً إلا باب المرحاض. بالله عليك، قل لي أين هو؟

إذاً ذلك اللص كان ابن عمي.. سألتني امرأة عمي:

ـ وماذا سنقول للشرطة هاه؟.

ـ لنتصل بهم ونخبرهم، أنه عندما اتصلت بهم في المـرة الثانيـة علمت من المأمور أن شرطياً في طريقه إلينا.

ـ إذاً ستخبروه عندما يحضر ؟ .

أثناء ذلك تعالى نباح الكلاب، وسمعنا صوت تلقيـم المسـدس وبعده رن جـرس البـاب وتتـالت طرقـات البـاب بشـكل مزعـج، واستيقظ الجميع على إثر هذه الجلبة إلا عمي... وقد حمدت اللــه على ذلك، لأنه لو استيقظ لامتشق سيفه من شدة خوفـه ووجهـه صوبنا ليسأل: ماذا حصل؟ ماذا يوجد؟

نزلنا جميعاً على رؤوس أصابعنا، فكانت خالتي أول من وصل إلى الباب. سألت:

ـ من الطارق؟ من هذا؟

أجبها الطارق:

ـ هيا افتحوا الباب، أنا رجل القانون، هيا.

وعندما لم يسمع منا أي رد أو جواب أعاد طلبه ثانية:

ـ هيا افتحوا الباب لرجل القانون وإلا حطمته.

سألته:

ـ ومن أنت؟

ـ عندما يُفتَح الباب ستعرفون من أنا، لا تفوتوا الوقت الآن، أقول لكم افتحوا، هيا.

وعندما فتحنا الباب، عرفنا أن الطارق رجل شرطة، راح يصرخ بأعلى صوته:

ـ لا تتحركوا، أحذركم.

وراح ينظر إلينا نظراتٍ غريبة في حين كان كل واحدٍ منا متجمداً في مكانه.

ـ لقد اتصلتم بمخفر الشرطة، ما القصة؟

أجبته قائلاً:

ـ نعم، حصل خطأ، ظننا أن أحد اللصوص دخل البيت إلا أنه لم يكن لصاً لا تؤاخذنا أتعبناك.

ضحك الشرطي بتهكم وسخرية:

ـ هيء هيء... خطأ هاه... إذاً حصل خطأ هاه؟ لم يكن لصاً أليس كذلك؟

قلت له ضاحكاً:

ـ نعم... حصل خطأ ولا تؤاخذنا.

أثناء ذلك سمعنا وقع أقدام.

ـ اصمت...؟ أعرف تماماً أنكم أخفيتم اللص عني. هيا اصعدوا معي، وهكذا صعدنا أمامه، وكأن يكش دجاجاً أمامه.

كان رجلاً قاسياً وجلفاً للغاية.

بعد ذلك جمعنا في غرفة واحدة وقال:

ـ هيا أخبروني أين اللص أعرف تماماً أنكم أخرجتموه من البيت عندما استرحم وبكى. أليس كذلك؟

قلت له:

ـ يوه ه ه...! كل ما تفوهت به لم يحصل أبداً.

ـ ماذا؟... إذاً ساعدتم اللص على الاختفاء أو الفرار.

ـ ولِمَ نساعده؟

ـ حسناً إذا كنتم لم تساعدوه، إذاً أخرجوه هيا... وأكثر من ذلك لا داعي للثرثرة.

راحت زوجة عمي تتوسل إلى الشرطي قائلةً:

ـ والله وبالله لم يكن لصاً يا بني.

ـ يا خالة الجميع يتصرف مثلما تصرفتم، وأنا أعرف هذا الشيء حق المعرفة، تخفون اللص عن أعين رجال الشرطة لتتفقوا معه فيما بعد أليس كذلك؟ هيا ــ صرخ بأعلى صوته مشهراً مسدسه.

دنت أمي مني لتهمس في أذني قائلةً:

ـ لن نستطيع الإفلات من هذه الورطة، لَم لا تدعي أنك اللص، وفي المخفر نتفاهم.

وقبل أن أتفوه بأية كلمة صرخ عالياً:

– ما بكم تتهامسون؟ وعلى ماذا تتآمرون، تدبرون خطة كي تهربوا اللص أليس كذلك؟

ـ لا والله يا شرطي أفندي، لا بالله... لا يوجد لدينا لص ولا مص، حصل خطأ واتصلنا بكم، حتى أننا أخبرنا المأمور بذلك، إلا أنه أعلمنا أنكم في الطريق إلينا.

ـ حضرت مضرت لا أعرف، كل ما أعرفه أنني لن أخرج من هذا البيت قبل إلقاء القبض على اللص.

غضبت كثيراً من الموقف الذي تورطنا فيه، وأنا على يقين بعدم وجود لص في البيت لذا قلت بيني وبين نفسي لَمَ لا أخرجه عنوةً. إلا أنه كان أسرع مني عندما أمسك ياقة قميصي وقال:

ـ طالما أنه لا يوجد لص إذاً هو واحدٌ منكم!.. هيا أعطوني بطاقاتكم الشخصية ثم أغلق الباب علينا جميعاً ليسمح لكل واحدٍ على انفراد بالخروج لجلب بطاقته الشخصية، وعندما أثبتنا أن لا لص في البيت قال:

ـ حسناً، سأقوم وحدي بالبحث عن اللص، سأجده حتماً..

خرج الشرطي أولاً وفيما بعد تبعناه لنبحث عن اللص، لدرجة أننا ظننا مضطرين أن لصاً حقيقياً في البيت.

فتح الشرطي جميع أبواب الغرف، بحث في جميع الرفوف والخزن، حتى الصناديق فتحها، بحثنا تحت الأسرّة وفي المراحيض وداخل الفرش.

وخلال ساعتين تحولت الدار الكبيرة إلى كومة من الفوضى، اختلط الطعام مع الأحذية والكتب، حتى تحت السجاد راح يبحث وهو يقول:

ـ على الإنسان أن يعمل بذمـة وضمـير ولا خـير في الإنسـان الذي يعمل من أجل المال، لو أتى إلى هذا البيت شرطي آخر لوثق بكلامكـم وانصـرف مـن فـوره، أليـس كذلـك؟... كنتـم ستخدعوني، لا، لا أنخدع بسهولة. لماذا؟. لأن الواحـد منـا يجـب أن تكون علاقته بالعمل علاقة صدق ومحبة، لأن من لا يحب عمله لا خير فيه. هل تظنون أنني أقوم بعملي بشرف وإخلاص من أجل المال؟ لا والله؟. كل إنسان في أي مجال كان يجب أن يمتلك روح الإخلاص لعمله فالإنسان الذي لا يمتلـك مثـل هـذه السـمات، لا يساوي عشرة قروش...

إن هـذه النزعـة ضروريـة، لا شـك أن المـال ضـروري لحيـاة الإنسان، إلا أن عشق العمل والإخلاص له ضروري أكثر. أخ لـو أستطيع القبض على ذلك اللص، حتماً سأقبض عليه حتى لو كـان في جحر فأر، لماذا؟.

والآن هل هناك مكـان آخـر لم نبحـث فيـه؟ أمـا نحـن فكنـا نستعر بنار الغضب:

ـ أيعقل أن اللص سيدخل إلى هذه الأمكنة؟

ـ هيهة... وراح يضحك بخبث... لو كان شرطي آخر لوثـق بكلامكم وانصرف، لا، سأجده أولاً وأخـيراً، أنتـم تخفـون اللـص وأنا بدوري أتعب وأشقي . لا.... ليس هكذا...

ـ يا أخي... يا سيدي... أرجوك اسمعنا، عبثاً تبحث عن لص غير موجود، و تتعب نفسك وتوترنا، لا لشـيء بـل لأننـا أخطأنـا وقلنا أن لصاً في بيتنا... آه لو لم نقل ذلك و لم نتصل.

ـ ولكن حسناً ما فعلتم، قد تظنون أنه غير موجـود في بيتكـم وتتفاجؤون بوجوده، يا جماعة لص هذه الأيام غـدار، يظهـر أمـام المرء دون أن يدري لذا لا بد مـن القبـض عليـه، أيعقـل أن يكـون بيت بلا لص! لمن آثار هذه الأقدام؟.. هيا قولوا، تعالوا معي لأرى آثار أقدامكم... لا يمكن أن يوجد مكان بلا لصـوص. في قـاموس السلك الذي أعمل به لا مكـان لكلمـة لا شـيء، هيـا لنبحـث في الطابق العلوي لأننا لم نبحث بعد، وهكـذا رحنـا ثانيـةً نبحـث في كل زاوية وثقب.

قلبنا المكان قلباً لدرجة أنه أصبح بحاجة لإعادة ترتيب.

المصيبة أن المكان الوحيد الذي لم نبحث فيه هـو غرفـة عمـي حيث ينام علـى السـطح، تقـدم الشـرطي ونحـن في إثـره وقبـل أن

نصعد الدرجة الأولى سمعنا صراخ عمي ولعله استيقظ بسبب أصواتنا بعدما كان مستمتعاً بأحلامه عن أيام الجيش الخالية.

وقف عمي الجنرال أعلى الدرج لابساً سروالاً قطنياً ومن فوقه روب منامته دافعاً بسيفه نحونا:

ـ المدفعية الثانية!.... الهدف.... الرقم... ثلاثة بارود يا حقي!... نـ نـ نار..

أما ذاك الشرطي فقد طار كالعصفور من فوقنا ثماني درجات ليسقط أرضاً منقذاً نفسه من سيف عمي، أما نحن فقد خرجنا خلفه من البيت، تاركين عمي ظاناً أننا من جماعة الأعداء. وأخيراً استطعنا إقناع الشرطي بعدم وجود لص في البيت.

لكن عمي لم يعد يصدق منذ ذاك أننا من أهله ولسنا من الأعداء، إلا أن روحه الهاوية أقسى من الشرطي المذكور.



قصة المدنية

التفت الجميع إلى الرجل الذي دخل المقهى دون أن يلقي التحية بينما بادره أحدهم بالسلام دون أن يكلف نفسه عناء رفع رأسه تماماً كدابةٍ منهمكة بشرب الماء:

ـ مرحباً حميد آغا.

ـ مرحباً.

ـ ما بك تلهث مثل ثور عجوز فُكَ وثاقه.

التفت حميد آغا نحو ذاك العجوز وقال:

ـ الحمد لله يا شاويش علي، لقد تخلصت من هذه الرذيلة، شكراً لك يا رب، آه!...

ـ تهانينا حميد آغا، أظنك سددت ديون المصرف؟

ـ لا ومن يفكر بديون المصرف؟ لا، لقد تخلصت من تلك الجيفة التي اسمها التراكتور، الكافر!..

فتح العجائز أنصاف النائمين أعينهم ومطوا رؤوسهم بفضول عندما سمعهوا بقصة التراكتور... وحركوا مواقع أقدامهم، ثم عدلوا من جلساتهم ودنوا بكراسي القش صوب حميد آغا.

ـ صحيح!؟..

ـ تخلصت منه بشكل كامل يا حميد آغا؟..

ـ هيا حدّثنا.

ـ نعم تخلصت منه «أجابهم حميد آغا» ألف شكر لك يا رب جعلتني أعيش هذه اللحظة.

تأجج الفضول وحب الاستطلاع لدى الجميع فحمل كل واحد كرسيه ليقترب من حميد آغا أكثر.

ـ إيه... قصتنا طويلة... بدأت عندما أنهى ابني خدمته الإلزامية... قال لي في حينها «يا أبي تعلمت أثناء خدمتي قيادة السيارات، لَمَ لا نشتري تراكتوراً».

في أثناء ذلك حضرت ابنتي مع زوجها إلى القرية مثل كل عام. في العطلة الصيفية فهما يعملان معاً كمدرسين وهكذا راحا بدورهما يلحان عليّ «بابا اشتري التراكتور» قلت لهما «يا روحي وما ضرورة ذلك؟ ألا يكفينا زوج من الثيران»؟

لا، الأنكى من هذا وذاك أنهما اعتبراني رجلاً رجعياً ومتخلفاً وغير متحضرٍ حتى أن ابنتي نزعت ورقة من التقويم السنوي لتقول «انظر يا أبي، نحن الآن في عام ١٩٥٥ هذا يعني أننا في القرن العشرين أفهمت؟».

بينما راح صهري يتحفنا بكلمة خطابية بعد كل وجبة طعام «نحن في عصر الآلة» «من المعيب في هذا الزمن حراثة الأرض بالثيران».

أما ابني فجلس يجري حساباته عن الفترة التي تلزمه لحراثة الحقل، وكم يوماً نحتاجه لحراثة الأرض بالثيران بعد ذلك تشدق قائلاً:

- أتدري يا أبي أنك تحرث الأرض خلال شهر من الزمن بينما أحرثها خلال أسبوع عدا عن أن هناك ألف من يبوس يديك كي تحرث حقله وبذلك خلال عام نجمع ثمن التراكتور.

وهكذا توالوا بالحديث فعندما يصمت ابني تبدأ ابنتي وبعدها صهري وهكذا دواليك إلى أن دوخوني.

قالوا إن الثور شره للطعام، يأكل إن عمل او لم يعمل صيف شتاء، بينما التراكتور وبفنجانين من البنزين يقلب الأرض فهو لا

يأكل ولا يشرب، وهكذا أصبحت وحيداً في موقفي، لذا كل ما أقوله بالنسبة لهم لا طعم ولا لون.

قالوا إن الثور قد يمرض ويموت، يشيخ ويهرم، بينما التراكتور من حديد لا يشيخ ولا يمرض لا يكل ولا يملّ، يعمل ليل نهار دون تعب..

لكن ما أزعجني من الأمر أن العجوز زوجتي انضمت إلى جوقتهم، إذ راحت تمطر عليَّ وابلاً من كلامها قائلةً:

إلى متى؟ ها هو موسى الشاويش اشترى تراكتوراً كذلك محمد آغا..

وهكذا راحت قصة التراكتور تطرق رأسي صباح مساء، لكن أن تنضم تلك العجوز إلى الجوقة أمر لم يكن بالحسبان.

«مهدار أيضاً اشترى واحداً وماذا تنتظر هكذا مكتوف اليدين. وحتى ميميش حسين اشترى تراكتوراً».

والله أُحرجت يا أغوات.

وبتلهف واضح وبين الفينة والأخرى راحوا يسألونه:

- إيه حميد آغا؟ وماذا بعد؟

ـ والله يا جماعة لم تكن لدي رغبة في شراء تراكتور إلا أن مدرس القرية أقنعني بذلك قائلاً : «يا حميد آغا هذا التراكتور بقوة ثمانين حصاناً... أتعلم ماذا يعني؟. هذا التراكتور يقلب الجبل ويسوي الحجر. ويحوّل الأرض القاحلة إلى جنة حقيقية».

ومن كثرة النق والقال والقيل وصلت روحي إلى أرنبة أنفي، لذلك وافقتهم وقلت لهم موافق... وأمري إلى الله طالما ميميش حسين أصبح صاحب جرار، بما أن الجميع أصبح لديهم جرارات فهل أبقى وحيداً في القرية، خاصة وأن المصرف يمنح قرضاً لهذا الغرض...

وقالوا إن هناك ثلاثة مقاسات «صغير، ومتوسط، وكبير»، ابني أصرّ على القياس الكبير، أما ابنتي فقالت: طالما سنشتري لَم لا يكون الكبير؟ وصهري بدوره أدلى بدلوه إذ قال «يا عمي المرء يشتري الجرار مرة واحدة»، أما تلك الشمطاء وكعادتها قالت: «هل تريد أن تفضحنا في القرية، لا والله لا أقبل إلا بالكبير»..

اجتمعنا جميعاً واتجهنا إلى مركز بيع المعدات.

وهناك التقينا بأحدهم، «والله ابن حلال» سألنا: ما مساحة حقلكم قلت له: ثمانين دونماً «اقترح بشراء القياس الصغير إذ أنه

يفي بالحاجة ويزيد، فهذا الصغير كما قال لا يفلح ثمانين دونماً بل ثمانمائة دونم»

لكن والله يا جماعة لم أستطع إقناع «جوقتي» إذ قالوا:

ـ لا تثق بكلامه فهو يخدعنا. قلت طالما هكذا إذن لنشتري الجرار الكبير.

وهنا أخبرنا ذلك الرجل بضرورة دفع أربعة آلاف ليرة مقدماً، والباقي يقسط على دفعات.

عدنا أدراجنا كي نجمع المبلغ، فأنا اسمى هذا الأيام حميد آغا، لكن لو قلت أن هذا المبلغ غير متوفر لما صدقني أحد. إذاً لَمَ الشرح؟.

نزلنا بالثيران إلى السوق، منظر يحرق قلب الكافر. الثور الرمادي راح ينظر إلى عيني ويبكي بينما الثور البني يلحس يداي.

على كلٍّ « وبلا طول سيرة» بعنا الثيران بحوالي ثلاثة آلاف ليرة والباقي وكما وعدونا حصلنا عليه من المصرف. وهكذا اشترينا يا سادة التراكتور الكبير من مؤسسة المعدات، لكن أي تراكتور «والله قد الجبل».

قالوا بفنجانين. قلت لنملأ الخزان كله بالبنزين وكذلك ملأنا الزيت.

ولكي لا يصاب الجرار بالعين كتبنا عبارة ما شاء الله وعلقنا عليه فردة حذاء مهترئ ورأس ثوم وعيناً زرقاء.

صعد ابني على ظهر التراكتور، وجلس خلف المقود، وصعدنا نحن وقلنا يا اللـــه... وقرب المساء وصلنا القرية ورحنا نجوب أطرافها دون أن يزعجنا أحد.

وهكذا بعد ما عرفوا أننا اشترينا تراكتوراً من مؤسسة المعدات صار كل واحد منهم يشتري جراراً حتى يوسف ذاك الذي لا يمتلك سوى عشرة دونمات، أرض كلسية، استطاع تجميع ثمنه سلفة من هنا، وقرضاً من هناك.

وهكذا رحنا نشهد سباق التراكتورات عند المساء.

لا أحد يشك في مهارة ابننا في قيادته، وكأنه خيّال على ظهر مهرته. حتى أنه ذات مرّة صدم سلحفاة ميميش حسين وألقى بها خارج الطريق بكل معلمية.

أيام السبت كالعادة يتجه الجميع إلى دار السينما في المنطقة، وهناك قبالة دار السينما تتجمع التراكتورات مصطفة أرتالاً وصفوفاً.

آه لو تشاهدون ابننا كيف يقود تراكتوره وهو يفتل بشاربيه، وبعد انتهاء الفلم وأثناء العودة يبدأ دوري سباق التراكتورات من يسرع يتجاوز الآخر.

لكن، أما يأتينا أحد الأشقياء ـ عديم الضمير والدين ـ ويركب بتراكتوره على تراكتورنا وبذلك تنكسر الأضواء ويتوقف الجرار بمكانه، وهكذا تشردنا جميعاً على الطرقات عائدين سيراً على الأقدام.

في اليوم الثاني اتجه ابننا إلى المدينة ـ لا أدري ما أصاب التراكتور لكن المهم هنا أنه لم يجد هناك تلك القطعة.

ـ إيه حميد آغا.. وماذا بعد؟..

ـ بعد ذلك استأجرنا زوجاً من الثيران لشد الجرار. قالوا لنا أن تلك القطعة غير متوفرة، اتجهنا إلى مؤسسة المعدات. قلنا لهم ندفع ثمن تلك القطعة مهما بلغت، وهناك أيضاً قالوا غير متوفرة.

أيعقل ذلك؟ فقطعة صغيرة توقف تراكتوراً من الجبل؟. أبوس عيني الثور البني!... لاقطع تبديل ولا براغي... لا محرك يتعطل.

وهنا اقترح ابني التوجه إلى مدينة استنبول، إلا أنه راح ولم يعد.

ـ إيه حميد آغا... وماذا بعد؟.

ـ بعد ذلك يا أغوات لا حس ولا خبر.

راح الجميع يفلح أرضه ونحن ننتظر، تشرشحنا في القرية والله، لا نقود لدينا لنشتري زوجاً من الثيران، لذلك اضطررنا لاستئجارهما. وهكذا فلحنا الحقل والحمد لله، وأخيراً وصلتنا رسالة من ابني يقول فيها أنه وجد القطعة، لكنه كان قد أنفق كل ما بين يديه من نقود ريثما وجدها، لذا طلب إرسال ألف ليرة.

هرعت إلى المصرف وحولت له المبلغ المطلوب، فيما بعد عاد الولد وبيده قطعة صغيرة قد المتليك* ... تباً أمن أجل هذه القطعة دفعت ألف ليرة؟!

اتفقنا مع أحد الميكانيكيين لتركيبها، وهكذا أقلع التراكتور.

---

* - المتليك من أجزاء الليرة التركية القديمة . المترجم

شرف فصل الشتاء بقدومه... فما حاجتنا للتراكتور، لذلك أدخلته وربطته في الياخور مكان الثور البني.

أثناء ذلك شارف موعد تسديد فائدة البنك والقسط الأول للمؤسسة. ما العمل؟ لا نقود لدينا؟ ولا شيء، وهكذا تسبب التراكتور بوجع رؤوسنا. لقدرحنا نجمع دينة من هنا وسلفة من هناك حتى استطعنا تأمين القسط الأول.

راحت الأيام تتراكض يوماً بعد يوم وأتى فصل الصيف قلت لابني هيا أرنا شطارتك.

بدأ العمل في الحقل بشكل جدي، وفجأةً توقف الجرار وسط الحقل، ولك ما علة هذا التراكتور اللعين؟ ألا يوجد من يفهم به؟!.

اتصلنا بالمؤسسة وحضر الخبير، وبعد فحصه قال «المسنن مكسور» طلبنا تزويده، أجاب لا يوجد أيعقل ذلك؟! ألا يوجد مسنن لهذه الرذيلة؟

على كلٍ تخوزقنا وجبر الله، تصوروا أنه قال لنا اشتروا تراكتوراً آخر وانزعوا المسنن عنه لتركبوه على تراكتوركم. بالله عليكم ما هذا الكلام؟!

أينما تجول بناظرك تجد الـرذالات في الحقـول. في كـل حقـل جيفة تراكتور قابعة، هنا الجنازير، وهناك القطع المعدنية، أكوام من الحديد.

آه يا ثوري البني، آه يا ثوري الأشـهب، تعمـل ليـل نهـار لا كلل ولا ملل، مفيد في حياته وموته، أما هـذا الرذيـل فليـس ثـوراً كي تذبحه وتستفيد منه فيما لو شعرت أنـه سيسـقط بـين يديـك، فهو لا ينحلب ولا ينجلب، لا يؤكل ولا يشرب.

الأيام تمر واقترب موعد تسديد القسط الثاني عندما قلت لهـم استرجعوه تذمروا، وقالوا لسنا مركـزاً لمبيـع وشـراء القطـع الباليـة «الخردوات» سأنفجر والله. علمنا أن أحدهـم يصنّـع قطعـاً لهـذا الرذيل، قلت لإبني هيّا يا حمار ابن الحمـار ونظّـف قذارتـك. اتجـه الولد إلى أضنة وهناك قـال لـه المعلـم «كيـف تريدنـي أن أفحـص المريض وهو ليس هنا».

قلت لإبني هيا اقطر الجرار الخربان على ثورين... بعد خمسـة عشر يوماً وصـل الجـرار إلى أضنـة، وهنـاك قيـل لابـني أن قطعـة معدنية سقطت داخل المسنن وتسببت بكسرها. ولإصلاحها لا بد

من دفع خمسمائة ليرة. فعلاً إنه طبيب فهمان. طالما أن هـذه المشـكلة عامة لذا بعت دونمي أرض وأرسلت المبلغ.

يومها زارنا صهري وابنتي، قلت طالما دفعنـا كـل هـذا المبلـغ على هذا المنحط، لمَ لا نمتطيه، وهكذا صعدنـا علـى ظهـره كبـاراً وصغاراً.

قلت لابني ابتعد عنهم فهذا الرذيل ليس خيلاً للسباق.

لكن الذي جرى عكس ذلك فقد اندفـع مثـل الحمـار الـذي يركض خلف أنثاه عندما تجاوزه أحدهـم، لم ألحـق كـي أقـول لـه إياك لا تفعل. وإذا بصوتٍ يصدر من الكربرتور «ولك ماذا فعلت يا نطفة الحمار، أظننته حصاناً أصيلاً حتى تخيـل عليـه، ولـك هـذا من صنع الغول واخـتراع الكفـار. واللـه حتـى لـو كـان حصانـاً لانفجر من فعلتك هذه». وهكذا حرن التراكتور ثانية وكأنه حمار ظامئ قشع الماء، دفعناه لم يندفع، آه كيف لا نبحث عن ذاك الثور الأسود في هذه المواقـف لـو قلـت لـه «ديـه» لقلـب الجبـل وفـك حجارته سحبت ابنتي جانباً وقلت لها: ولك يا بنت القحبة نحن في أيـة سنة الآن آه؟ هيـا قـولي، أظـن ١٩٥٥، ومـن ثـم التفـتُ إلى صهري وسألته في أي قرن نحن الآن. أظن في القرن العشرين أليـس

كذلك. آه يا ثوري الأشهب بكمشة من التبن تجعله يعمل ليل نهار، تفلح عليه، وتشد العربة عليه وتنقل القمح والشعير وحتى الحقل.

- إيه حميد آغا... وماذا بعد؟.

- إيه يا أغوات... بعد ذلك جاء موعد تسديد القسط الثالث... بلاء على الرؤوس هذا الجرار يا أغوات... بعت عشرة دونمات من الأرض، برغي بخمسماية... قطعة قد الإصبع بألف ليرة يتعطل ولا تجد قطع تبديل له.

ينقطع الجنزير ولا تجده في المخازن. هنا بحاجة لإصلاح وهناك للترقيع. آخ من هذا التراكتور عندما يدور حول شروالي يملأ الدنيا بالغبار والهدير.

أينما مددت يدك في حقلي تجد صامولة هنا، قطعة حديدية هناك، أو قضيب معدني، سلاسل جنزير وكأن بذور الجيفة قد نثرت في جميع أرجاء الحقل.

قالوا نائب البرلمان الذي انتخب ممثلاً عن الصناعات المعدنية في زيارة قريتنا، ذهبت إليه وقلت له:«وماذا سنفعل الآن» «أيعقل

أن قطعة قد الطابع توقف تراكتوراً مثل الجبل وتجعله جيفة وسط الحقل»؟!.

ـ إيه، وماذا قال يا حميد آغا؟.

ـ ماذا سيقول... تحدث مطولاً بكلمات لم أفهم جلها. قال أن الإنسان القديم عاش في العصر الحجري، أما الآن فإنه يعيش في العصر الحديدي يعني عصر الآلة. أي أن المدنية والعصرنة تدخل البلاد عبر الآلة. قلت له: «ما تقوله صحيح، لكن، أدخلتم المدنية إلى بلادنا مشكورين، لكن أين قطع التبديل لها؟. »

تعال وانظر الأحوال في حقولنا، كيفما تجولت تجد فيها قطع تبديلية، وهكذا تحولت المدنية إلى كومة معدنية وسط الحقل كجيفة نتنة. ألا يوجد أصغر من هذه المدنية؟.

فهذه الرذيلة لا تتحرك لا بالـ«دي» ولا تسير بالـ«هوش».

ـ إيه حميد آغا؟... وماذا بعد؟ وماذا قال؟

ـ بعد ذلك يا أغوات قال: «طلبنا من أمريكا وننتظر موعد وصول القطع التبديلية. على كلٍ بدأنا ببناء مصنع لهذا الغرض، انتظر قليلاً وستمطر القطع التبديلية عندنا مثل المطر. قلت له نحن سننتظر لكن قل للمصرف أن ينتظر.

دنا موعد القسط الأخير لكن أصدقكم القول أنني حننت إلى الثيران، تذكرت كيف كان ثوري البني يبكي، والله احترق قلبي عليه. على كلٍ لن أطيل عليكم، بعت كامل الحقل وسددت ديوني.

ـ وماذا بعد يا حميد آغا؟.

ـ بعد ذلك أرسلت خلف ابنتي وزوجها كذلك تلك العجوز وابني وأخذتهم إلى حيث الجثة وقلت لهم هيا أصلحوا هذا البلا وإلا سأشد النير على رقابكم كي تشدوه وأفلح عليكم. حاولوا، واستطاعوا تشغيله لكن كيف؟

راح يرتجف كالمحتضر تارةً ينقطع القشاط وأخرى تسقط الصامولة، وعندما يركبوها ينكسر المسنن.

ـ إيه وماذا بعد حميد آغا؟.

ـ بعد ذلك يا أغوات قلت لهم لا رجاء من ذلك.

جمعتهم مثل قطيع من المواشي.ودفعتهم أمامي وعندما وصلنا مكان الجيفة النتنة قلت لهم: «الآن ستشاهدون يا أولاد الكلب كيف سأصلحه». رحت أضرب المقود بالمطرقة وأنا أقول (خذي يا سنوات القرن العشرين) ومن ثم رحت أضرب المحرك....

(وخذي أنت أيتها المدنية) كذلك تهاوت مطرقتي على العجلات وأنا أقول (وهذه لك يا قطع تبديل المدنية) بعد ذلك ضربت وضربت حتى سمعت صوت زوجتي العجوز (الحقوا! لقد جنَّ هذا الرجل العجوز).

تراكض الجميع نحوي، ألقيت المطرقة على الأرض ومشيت حتى وصلت إليكم يا أغوات.

أما أولئك المستمعون فقد فتحوا أعينهم وأرخوا.... وسألوا:

- أيه وماذا بعد يا حميد آغا؟

- وماذا سيكون ؟ الآن.... أدركت روعة الحياة بعد ما تخلصت من تلك الرذيلة... نعم تخلصت من تلك القذارة.... ألف شكر لك يا رب... أشعر وكأنني ولدت من جديد، ومن ثم التفت إلى النادل ليقول:

- يا ولد، إصنع فنجان قهوة لكن على كيفك.



آه لو لم يكن الذباب !

عندما كان في العاشرة من عمره، كثيراً ما كان يقول:

ـ آه لو كانت عندي حقيبة!.. ومثل بقية الأطفال لو كانت عندي كتب وألعاب!... أو حتى روايات عندها ستعرفون كيف أجدّ وأجتهد... لكن، كيف للمرء أن يعمل في مثل هذه الظروف؟. وعندما بلغ الثالثة عشر أصبحت لديه كباقي الأطفال ألعاب ودفاتر وحقائب...، ومع ذلك لم يجد ولم يجتهد، وكان يبرّر موقفه قائلاً:

ـ آه... لو كانت عندي ملابس جديدة مثل باقي أصدقائي... تصوروا أننا جميعاً نعيش في غرفة واحدة!... كيف يمكن للمرء أن يدرس ويعمل في هذا المكان الصغير...؟ آه لو كانت عندي طاولة وخزانة خاصة لرأيتم ماذا سأفعل.

في الثالثة عشر أصبحت لديه غرفة خاصة. ومع ذلك لم نقرأ له أي شيء والسبب كما هو معروف:

ـ شاب في مقتبل العمر مثلي لا يوجد في جيبه عشر ليرات كمصروف شخصي، كيف سيعمل هاه؟ آه لو استطعت شراء الكتب والصور... آه، ثم آه.. عندها ستعرفون من أنا؟.

تحققت رغبته عندما بلغ العشرين من العمر ومع ذلك النتيجة كانت هي هي:

آه لو انتهى الفصل الدراسي لأصبح للحياة طعم آخر... نعم الحياة شيء والدراسة شيء آخر. عندما أنهي دراستي الجامعية سأكتب أشياء رائعة، آه لو انتهت هذه الدراسة.

عندما بلغ الرابعة والعشرين أنهى دراسته الجامعية ومع ذلك لم نقرأ له أي شيء والأسباب والمبررات جاهزة.

ـ لا أدري لَمَ لا أستطيع العمل... أظن لو أني أنهيت الخدمة الإلزامية لعملت ليلاً نهاراً بلا كلل أو ملل..

نعم سأكتب عملاً يتحدث عنه الجميع. آه لو أنهي الخدمة الإلزامية اليوم قبل الغد.

في السادسة والعشرين أنهى خدمته الإلزامية ومع ذلك لم يعمل... لَمَ؟.

ـ لا أستطيع الكتابة كما أريد... وكيف يمكنني القيام بذلك وأنا لا أملك ثمن كسرة خبز؟ كيف للمرء أن يكتب ولم يجد فرصته في العمل «تستر آخرته وتحميه من العوز».آه لو وجدت عملاً لكتبت ليلاً نهاراً، نعم، ليلاً نهاراً حتى يظهر مؤلفي.

عندما بلغ الثامنة والعشرين أصبح صاحب وظيفة.

ـ أنا لا أستطيع الكتابة والسلام، وكيف لي أن أقوم بذلك وأنا لا بيت لي، حتى لو كان عشاً صغيراً. ولا مذياع لدي كي أستمتع بسماع مقطوعات موسيقية تلهمني الكتابة... آه لو ملكت مذياعاً لعملت ليلاً نهاراً دون توقف.

بلغ صاحبنا التاسعة والعشرين، استأجر شقة مؤلفة من غرفتين، كذلك اشترى مذياعاً ومع ذلك لم يبدأ بكتابة مؤلفه... سنوات طويلة وهو يهم بالبدء، لكن...!....

ـ آه قاتل الله الوحدة... فهي في صدري كسراديب لا نهائية كيف للمرء أن يكتب والوحدة القاتلة تحاصره من كل مكان؟.

– كيف سيبدع المرء دون دوافع؟ آه أين أنتِ يا عشقي النبيل؟.

عشق صاحبنا في عقده الثالث، نعم عَشِقَ وعُشِقَ ومع ذلك لم يستطع إنجاز ما حلم به منذ سنوات طويلة.

كان يقول:

ـ العشق شيء رائع، لكن، ما نفعه دون زواج، آه لو تزوجت لاستقامت حياتي وتوازنت، عندها سأقوم بتحقيق رغبتي. نعم، لن أهدر دقيقة واحدة دون كتابة، نعم سأعمل ليلاً نهاراً.

تزوج في الثانية والثلاثين، كان سعيداً في زواجه ومع ذلك لم يستطع البدء بمخطوطه، لأنه محق في ذلك على حد زعمه:

ـ المعيشة صعبة، لا يمكن للمرء أن يبدع وهو يلهث خلف لقمة خبزه. كيف سيكتب، وكيف سيبدع ولا وقت لديه؟ وهذا الشيء الوحيد مما لا يمكن شراؤه.

عندما بلغ السادسة والثلاثين ازدادت أرباحه، وبذلك ازداد دخله وتحسن مستوى معيشته ومع ذلك لم يتخلَ عن نقه:

ـ ما هذا؟!! شقة صغيرة، وغرف أصغر، صخب وضجيج، كيف يمكن للمرء أن يبدع وسط هذه الفوضى؟.

آه لو كنت أسكن في بيت واسع وكبير، مؤلف من أربع، خمس غرف، عندها لَم لا أعمل؟... حتماً سأبدع.

انتقل صاحبنا إلى بيته الجديد عندما بلغ الثامنة والثلاثين، بيت كبير، مؤلف من خمس غرف، لكن المشكلة أنه لم يستطع البدء بكتابة مؤلفه بأي شكلٍ من الأشكال. فلم يكن مذنباً على حد قوله:

ـ كيف يمكن للمرء أن يبدع ويكتب وبيته يقع وسط المدينة؟ صخب المدينة تقتل روح الإبداع لذلك ولكي أبدأ بكتابة مؤلفي عليَّ السكن في منطقة هادئة نائية... فكما يقولون «هنا غبرة وعفرة وقلة واجب» لكن آه لو أجد ذلك البيت الذي أرغب لعملت ليلاً نهاراً. فأنا أتعطّش للعمل منذ سنوات طويلة، إلا أن ظروفي لا تسمح بذلك.

في الأربعين تماماً وجد ذلك البيت وحقق أمنيته، بيت جميل، في منطقة أجمل، لكن هل سيعمل كما يقول؟. خاصةً عندما نسمعه يقول:

ـ آه، كيف يمكن للمرء أن يبدع ولا توجد لديه طاولة مريحة، ولا لوحات فنية جميلة تزين جدران بيته، ولا منمنمات

تزين خزائنه، كيف سيبدع ولا أرائك مريحة لديه ولا حتى سجادات ناعمة، كيف سيبدع عملاً رائعاً وهو لا يحضر حفلات الموسيقا الكلاسيكية. لكنه حتماً سيبدع ودون توقف عندما يتوفر كل ذلك. لكن آه هل أحصل على هذه الأشياء كلها في يومٍ من الايام؟!!..

نعم لقد حصل على هذه الأشياء، النفيسة والنادرة عندما بلغ الثانية والأربعين ومع ذلك لم يبدأ برائعته. لنسمع مبرراته:

ـ آه، لو علمتم بحالي... لا أحد يعرف مشكلة أحد.

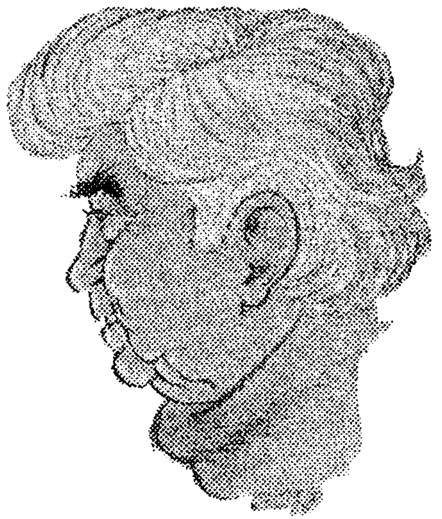
مشكلتي ليست مادية، زوجتي رائعة فهي دائماً تمنحني الأمل والتفاؤل، كذلك أولادي فهم رائعون حقاً. بيتي مريح يُدخل البهجة والسرور على قاطنه، يُطل على بقعة رائعة الجمال، كذلك كل شيء في بيتي غالٍ وثمين، لدي متسع من الوقت لأكتب وأبدع، لكن، وكما قلت ـ لا أحد يدري بمشكلتي، آهٍ من هذه الذبابات، تنغص عيشتي وتقلق راحتي، كيف أجلس وأكتب وهي تعكر صفو حياتي؟..! آه لو عرفتم المشاكل التي تواجهني بسببها؟ آه لو لم يكن الذباب لعملت ليل نهار. لكن ماذا عساي فعله

والذباب يعرقل إنجاز مؤلفي، فأنا لا أستطيع النوم نهاراً كي أكتب في الليل.

لو أغلقت النوافذ لأصبح جو البيت لا يطاق، بالله عليكم أرشدوني ماذا أفعل؟ آه من هذا الذباب لولاه لقرأتم أشياء رائعة. كما لاحظتم بلغ صاحبنا الثانية والأربعين ومع ذلك لم يفقد الأمل. لذلك سينجز رائعته ذات يوم، لكن متى؟:

عندما تتوفر لديه جميع الشروط وبذلك سيعمل ليلاً ونهاراً وسنقرأ مؤلفه العظيم.





الميكروب الأوريجينال (العصري)

يدخل البروفيسور ذو الوجه العبوس، المتجهم دائماً، الذي لا يضحك حتى للرغيف الساخن.. دخل ومن خلفه طلاب الاختصاص وكوكبة من طلاب كلية الطب.

يترأس هذا البروفيسور قسم الأمراض العينية، لكن بسبب قسوته وفظاظته وقلة كلامه ولغياب الابتسامة عن وجهه وبسبب شكلة الكاريكاتوري كل ذلك يجعله يبدو كأنه من جنرالات الحرب العالمية الأولى.. ناهيك عن أنه رجل في منتهى البرودة، ولعل هذه الصفات مجتمعة، قد شكّلت الحاجز الكبير الفاصل بينه وبين كل من يعرفهم...حتى طلابه وأصدقائه.

هو طبيب معروف في عالم الطب، وعضو في منظمات طبية عالمية متعددة، كما يحتل مكانة هامة في الدوريات الطبية المتخصصة، بكتاباته واكتشافاته العلمية.. لذلك كان يُكن له كل الاحترام والتقدير.

كثيراً ما يقف عند أسرّة مرضاه أثناء الكشف الصباحي دقيقة أو دقيقة ونصف على أكثر تقدير.. أما الأطباء الآخرين وطلاب الاختصاص وطلاب كلية الطب... كثيراً ما يخشون أسئلته...

ـ منذ متى هذا المريض هنا؟

أجابه طالب الاختصاص الواقف على يساره:

ـ منذ البارحة يا أستاذي.

ـ ما به؟

ـ حتى الآن لم نستطع تشخيص مرضه، فهو يشكو من ألم في عينه مع صداع دائم...

نظر البروفيسور من بعيد إلى عيني المريض المحمرتين من الألم... مصدراً بعض الكلمات من بين أسنانه دون أن يفتح فمه: .. ثم قال:

ـ التحاليل؟

ـ أجريت يا أستاذي.

P.E.S ـ

على هـذا النحـو.. كثيراً مـا يخـبر طلابـه عمـا يريـد برمـوز إنكليزية وذاك عائد لندرة كلامـــه فقـد قصـد هنـا بـذل عينـة مـن مفرزات عين المريض لفحصها.

غـادر البروفيسـور متوجهـاً إلى غرفتـه بينمـا تـابع طـلاب الاختصاص جولتهم علـى المرضـى لمعـاينتهم.. بعـد مـا أن أنجـزوا القسم الأول من جولتهم مع البروفيسـور بسـلام ودون مشـاكل. بينما قام طالبان من طلاب الاختصـاص ببـذل العينـة المطلوبـة مـن عين المريض وأعطياها للبروفيسور حسب توجيهاته.

انحنى البروفيسور على المجهـر وبعـد فـترة مراقبـة طويلـة رفـع رأسه وابتسم، هذه الابتسامة أذهلت طالبا الاختصاص فهـذه هـي المرة الأولى التي يشاهدان أستاذهم يبتسم، ثـم مـد يـده إلى المكتبـة مخرجـاً بعـض الكتـب السـميكة الضخمـة وبـدأ يقلـب صفحاتهـا ويتمحصها... وبين الفينة والأخرى كان يتمتـم بكلمـات «همـم نعم» «حسناً» ثم التفت نحو ذاك الطالبين وقال:

ـ ادعوا جميع طلاب الاختصاص.. بل كل الطلاب.

احتشد مكتب البروفيسور بالأطباء والطلاب...

وجميعهم مصاب بالذهول بسبب ابتسامته.. كيف لا وهو صاحب الوجه الواجم العابس دائماً وأبداً؟؟.

كان يضحك، مثل طفل فقير نال هدية غير متوقعة بيوم العيد، كما كان مفعماً بالحيوية والنشاط وهو المعروف برزانته وهدوئه ورصانته. لا يهدأ بمكانه... كان يغلي بدلع ويحوم حول مجهره كأم العروس!!.

توجه إلى طلابه قائلاً:

- يا أولاد.. إنها لفرحة كبيرة جداً!! نحن الآن أمام ميكروب عصري.. عصري جداً.. لذا فنحن نعيش حدثاً نادراً.. هناك كثير من الأطباء في تركيا لم تسنح لهم فرصة مشاهدته طوال حياتهم.. فكم أنتم محظوظون.. ستشاهدونه وأنتم مازلتم طلاباً.. وقد فُسح لكم المجال لتعيشوا هذه اللحظة.. يجب أن تعرفوا أن هذا الداء نادر.. وأما نسبة الإصابة به عشرة في المليون على أكثر تقدير.. أنا مثلاً شاهدت هذا الميكروب مرتين.. الأولى عندما كنت طالب اختصاص في جامعة باريس وأذكر أني شاهدته بمساعدة أستاذي والمريض كان شاباً من أفريقيا.

هنا لا بد من التأكيد على إجراء المداخلة الجراحية خلال الثماني والأربعين ساعة الأولى منذ بدء الألم.. وإلا سيفقد المريض بصره.. بعد توقف الألم.

والتفت نحو أحد طلاب الاختصاص وسأله:

ـ متى بدأ الألم عند المريض؟

ـ البارحة صباحاً.. وقد دخل المشفى مساءً.

ـ إيه.. هذا يعني إن لم تجرِ المداخلة الجراحية خلال أربع وعشرين ساعة سيفقد المريض بصره فهذه الميكروبات تسبح في المفرزات النسيجية وتنمو فيها ثم تتوضع في مركز الرؤية في الدماغ وتسبب جفافه.. أما الآن أدعوكم كلاً منكم ـ بالدور ـ لإلقاء نظرة على الميكروب.

وهكذا راح كل واحد بدوره يتأمل الميكروب تحت المجهر بينما بدأ البروفيسور يُعلِم أصدقاءه عن اكتشافه مسروراً بطريقة أقرب ما تكون للتبشير، وكان فرحه نابعاً من حبه لعمله.

ـ شيء مدهش.. مسيو.. شيء لا يمكن رؤيته في كل لحظة.. حسناً وأنتم إذن لم تشاهدوه إطلاقاً.. إنه نادر يا صديقي. أعتقد

أنه لا يوجد في كل تركيا طبيب واحد شاهده.. وآه كم أنا سعيد ومتحمس يا سيدي.

ثم التفت إلى الحاضرين بعد أن وضع سماعة الهاتف وقال:

ـ أرأيتم؟... أما قلت لكم؟ حتى هو لم يشاهد الميكروب الأوريجينال. أطباء مشهورون.. إلا أنهم لم يشاهدوه بتاتاً!

كثف اتصالاته الهاتفية إلى كل الاتجاهات، اتصل بالاتحادات الطبية ونقابات الأطباء.. لكنه في نفس الوقت كان يتلفت بين الفينة والأخرى ليتحدث إلى الحضور.

ـ يموت هذا الميكروب فوراً إن تعرض للهواء.. لذلك لا يعتبر من الأمراض السارية.. ولو كان غير ذلك لأصيب كل الناس بالعمى.. لهذا انتبهوا للعيّنة واحرصوا عليها.

كان يهتم بهذا الميكروب وحياته.. كما لو أنه درة غالية.. لكنها حية.. فراح يكلّف طلاب الاختصاص بمهمات تتعلق بالميكروب.. ومن شدة فرحه وسروره نسي تناول طعام الغداء.

بعضهم سيرسم الميكروب بعد تكبيره ألف مرة.. واثنان آخران سيعدّان بمساعدة بعض الطلاب، وبعض المراجع دراسة خاصة عن تكاثره .

كان يقدم ملاحظاته توجيهاته وهو غارق بين صفحات الكتب ليعد بعض الأبحاث.

الجميع كان مهتماً.. بمن فيهم المواطنون والحراس والخدم كلهم كانوا مشغولين بهذا الميكروب.. لذلك لم تسرِ الأمور يومها في المشفى بشكل عادي، و لم يعش المشفى مثل هذا النشاط منذ تأسيسه.. حتى أطباء الأقسام الأخرى تجمعوا في قسم الأمراض العينية عندما سمعوا بالنبأ راغبين إلقاء نظرة على الميكروب المذكور... بينما كان البروفيسور يشرح لهم وكأنه شعلة من النار.

عاد البروفيسور إلى منزله متأخراً.. بعد أن عمل على غير عادته حتى ساعة متأخرة من الليل بينما استمرت التحضيرات التي بدأت منذ الصباح لإجراء اللقاء الصحفي... لكن.. بعد عودته استمر بالعمل لإعداد البيان الصحفي بخصوص اكتشافه.. ذلك البيان الذي سيحتل مكاناً هاماً وبارزاً في الصحافة الطبية العالمية.

سيكون لهذا العمل العلمي النادر مكانة هامة .. لذلك لم ينم طوال الليل.. حتى خلال فترة سهوه القصيرة كان يهجس بهذا الميكروب وهو بين الحلم واليقظة.

في الصباح الباكر أسرع البروفيسور إلى المشفى ليطمئن على حالة الميكروب.. فالمهم بالأمر هو إمكانية زرعه خارج الأنسجة العينية وإجراء الاختبارات من أجل تكاثره.

نعم، لقد تم إكثار الميكروب.. وثمة قسم كبير من المستعمرة الميكروبية مازال حياً ويتكاثر.

كان البروفسور يطير من الفرح.. يقهقه مطلقاً ضحكات رنانة موزعاً التفاتاته على الجميع مازحاً.. حتى مع الخدم.

احتشد جمع غفير من رجال العلم المنتدبين لحضور المؤتمر الصحفي، بينما التجارب مستمرة على الميكروب.. وكان لدى البروفسور متسع من الوقت لإرسال البرقيات إلى خارج البلاد وإعلام زملائه من الأطباء المشهورين والمنظمات والفعاليات الطبية العالمية. وبذلك يمكن القول أن القسم قد تحول إلى نموذج لمركز البحث العلمي .. الجميع يعمل.بلا استثناء.. الأطباء وطلاب الاختصاص والطلاب الآخرون.. وكلهم متحمسون دافعهم الوحيد هو عشقهم للعمل.

دخل ثلاثة من طلاب الاختصاص مكتب البروفسور، ومن شدة فرحهم وسعادتهم نسوا حتى أن يطرقوا الباب استئذاناً

بالدخول.. دخلوا يطقطقون أصابعهم من فرط التوتر الناتج عن فرحهم الشديد الغامر عندما اكتشفوا أن الميكروب الدائري الحلقي قد تحول إلى رفيع متطاول.. أوضحوا مالاحظوه للبروفيسور، فقال:

ـ ليأتِ جميع الأولاد.

وبالسرعة القصوى اكتظ مكتب البروفسور ثانية وأخبرهم أنه يعد كتاباً حول الموضوع ثم التفت إلى مشرف المريض يسأله:

ـ كيف حال المريض؟

ـ لم يعد يتألم.

ـ وماذا؟

ـ لقد فقد ب.. ب.. بصره.

قهقه البروفيسور بزهو وقال مفتخراً:

ـ تمام، ممتاز، هائل... ألم أقل لكم إذا لم تجرِ له مداخلة جراحية خلال الثماني والأربعين ساعة الأولى سيفقد بصره ويتوقف الألم.. بما أن الألم بدأ صباح أمس الأول فهذا يعني أنه سيفقد بصره هذا الصباح.. تماماً كما حصل.. أرأيتم؟ تماماً كما قلت لكم أليس كذلك؟.

أجاب طالب الاختصاص:

ـ نعم.

ـ لاشك في مصداقية العلم يا أولاد.. لقد أنبأتكم عن ذلك..

دخل البروفيسور ومن بعده طلاب الاختصاص وطلاب كلية الطب مسرورين وكأنهم يرقصون فرحاً إلى قسم الأمراض العينية ليتابعوا تجاربهم حول الميكروب الأوريجينال «العصري».



الفهرس





تفترض الحياة أن يكون للمرارة وجه يكشف بأسلوب السخرية ما لهذا العالم من مفارقات . . .

إن عزيز نسين خلف وراءه إرثاً أدبياً حقيقياً شكل ولايزال يشكل كنزاً من كنوز الأدب العالمي . .

وهو في هذا الأرث أثار قلقنا حيال سريان دفق المرارة المستمر في حياة الناس . . .

إن قصص هذا الكتاب المترجم تواً للعربية يزيد من معرفتنا بهذا الأدب الرفيع . ومعرفتنا بكاتب اعترف الجميع له بعظمة وأهمية أدبه في حياة البشرية .